

قضايا



1910

1911

1912

إنها : مشكلة .. أن نجب مصر



كانوا يقولون كثيرا : إن الفرنسي بمفرده شخص ذكى . وإذا اجتمع فرنسيان يبدأ النقاش . وإذا اجتمع ثلاثة .. تبدأ الفوضى .
أما الإنجليزى فهو بمفرده شخص غبى . وإذا اجتمع انجليزيان تبدأ الرياضة . وإذا اجتمع ثلاثة .. تبدأ الإمبراطورية البريطانية !
حسنا .. ماذا عن المصرى ؟

إن الذى قيل عن الفرنسيين والإنجليز كان فكاهة . الآن لا توجد فى فرنسا فوضى ، بل يوجد اتهام أوربى بأن فرنسا عاشت دائما تحت حكم الموظفين .. واتهام بأن بريطانيا أضاعت إمبراطورية . بل إنه فى الشهر الماضى فقط صدر أحدث كتاب يحلل أسباب انهيار الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس . وصدرت أيضا حلقات تليفزيونية تسجل ، بغل دفين ، أن مصر تحديدا هى التى دفنت الإمبراطورية البريطانية فى مياه قناة السويس سنة ١٩٥٦ . لقد جرى التراجع .. ومن يومها تستمر المراجعة ويتوالى توزيع قوائم الإتهام .
لكن .. ماذا عن المصريين ؟

هل المصريون هم الذين قال عنهم بعض العرب قديما : «قال العقل أنا لاحق بالشام .. فقالت الفتنة : وأنا معك . وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية .. فقالت الصحة : وأنا معك . وقال الخصب أنا لاحق بمصر .. فقال الذل : وأنا معك» .

هل المصريون هم الذين قال عنهم اللورد كرومر : «إنهم مسلمون وليس فيهم خواص إسلامية .. وأوربيون وليس فيهم خواص أوربية» ؟!

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١٢/١٨ .

وإذا كان كرومر إنجليزيا وعاش يحكم مصر ممثلاً للإحتلال البريطانى فيها .. فماذا عن الآخرين ؟

ماذا عن عمرو بن العاص فى وصفه لمصر : «نيلها عجب .. وترايبها ذهب .. وأمرؤها جلب .. وهى لمن غلب» !؟

ماذا عن أحمد شوقى ، أمير الشعراء ، الذى قال عن شعب مصر :

أثر البهتان فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببغاء عقله فى أذنيه
ملاً الجو هتافاً بحياتى قاتليه

وإذا لم يكن هذا هو معنى «المصرية» .. فماذا إذن ؟

هل المصرية هى الشعور بمركبات النقص كما كتب صبحى وحيدة فى سنة ١٩٥٠ ؟ هل هى الشخص الفهلوى كما كتب حامد عمار فى سنة ١٩٦٤ ؟ هل الإيمان بأن بلدنا هى «بلد الخيار ومصر الأمصار» كما كتب عبد الله النديم فى أواخر القرن التاسع عشر ؟ هل هى «ابن البلد» الذى هو «ذكى ، إلا أنه جاهل .. وظريف ، سوى أنه مغرور .. وجود فى غير كرم ويمسك فى غير بخل ويتكلم بغير علم» كما كتب ابراهيم عبد القادر المازنى فى أواخر الأربعينات من القرن العشرين ؟

هل مصر هى العبقريّة فى المكان كما يحللها الدكتور جمال حمدان فى كتابه الموسوعى ؟ أو أن مصر هى « مثل رائع للتقدم . خطت فى سبعين عاما ما خطاه غيرها فى خمسمائة سنة» كما كتبت صحيفة «التايمز» البريطانية فى سنة ١٨٧٦ بالضبط ؟

هل مصر هى «تلك الخبرة الضخمة والحكمة العميقة التى يجب أن نتعلم منها» كما كتب زعيم الهند الراحل جواهر لال نهرو ؟

أو أنها مليئة بالمضحكات كما قال الشاعر العربى الكبير المتنبى ؟

هل مصر هى تلك الحضارة العظيمة التى دافع عنها عباس محمود العقاد .. أو أنها ذلك الوجه الضاحك الباكى الذى يختلط فيه الرجاء مع خيبة الأمل .. كما يرى فكرى أباطة ؟

فى أى إطار من هؤلاء .. نرى مصر ؟ بأى منظار نحبها ؟

إننا نستطيع طبعاً أن نحبها ، بتلك الطريقة الغيبية التي يلخصها إيمان الفلاح المصرى حينما يقول إن «مصر هى أم الدنيا» . نستطيع أن نحبها على أساس أنها أمانة . إننا نحب الأم لأنها موجودة . إننا لا نحبها على أساس الصواب والخطأ ، ولكن على أساس واقعة محددة هى أنها أمانة ونحن أبناءها .. وأيضاً لأنه بغير شقائها وتعبها ورعايتها لم نكن لنشب عن طوقنا . إننا - بهذا المعنى - نستطيع أن نرى مصر خالدة كالبحر .. واسعة ورياضة وبغير حدود . إنها تلقائية ومخضبة تعطى من خيرها بلا مقابل وتفيض بغير مكافأة . إنها تلد ، وتغذى ، وتعطينا من دفئها وشمسها الكثير .

حسناً . ولكن هذا هو ما اعتدنا أن نفعله ، بغير أن نغير فى مصر شيئاً كثيراً .. أو نغيره فى فئنا شيئاً كثيراً . اعتدنا أن نهيم بمصر ، ونرتبط بها بمشاعر رومانسية تعتمد على صورة عاطفية محضة ، أساسها الولاء البدائى الغريزى من أبناء نحو أهمهم ومصدر حياتهم .

ولكن هذا أيضاً لم يصل بنا إلى بعيد . هذا لم يحل الأزمة المستمرة الحادة التى تعيشها مصر فى تاريخها الحديث . أزمة من الاستدارات الحادة ، لا يدركها إلا من يتأمل بعمق تاريخ مصر القريب والمعاصر . فخلال المائتى سنة الأخيرة وحدها .. أقامت مصر امبراطورية وصلت حتى أوغندا جنوباً ، وتونس غرباً ، وتركيا شرقاً . وفى نفس الوقت تعرضت مصر للغزو المسلح من امبراطورية أولى ، ثم من امبراطورية ثانية ، ثم من امبراطوريتين ونصف معا !

كل هذا فى مائتى سنة !

بل إن هناك ما هو أكثر . ان أحمد عرابى كان بطلاً وزعيماً وصاحب ثورة بالنسبة لجيله .. ثم أصبح محتالاً وجاهلاً وأهوج بالنسبة للجيل التالى له مباشرة ، قبل أن ينصفه ويرد إليه اعتباره جيل ثالث .

ومحمد على .. كان منشئ مصر الحديثة بالنسبة للأجيال الثلاثة التالية له .. ثم أصبح مخرب مصر الحديثة بالنسبة للجيل الرابع !

وثورة سنة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول . كانت أعظم ثورة بالنسبة لجيل مصطفى النحاس .. ثم أصبحت نصف ثورة ، بل وقصيرة النظر بالنسبة لجيل جمال عبد الناصر .

وثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ نفسها .. كانت رائدة الثورات فى العالم الثالث بالنسبة لشبابها .. ولكنها أصبحت مجرد حكم بوليسى بالنسبة لعجائزها . وأصبح اسم جمال عبد الناصر يجرى إطلاقه على ميادين وشوارع فى عواصم دول تقع فى أمريكا اللاتينية والجنوبية وآسيا وإفريقيا .. ودائرة المعارف البريطانية تسجل اسم ناصر على البحيرة الضخمة التى خلقها السد العالى .. بينما فى مصر ذاتها تسمى فقط باعتبارها بحيرة السد العالى .

وعلى المستوى الحضارى .. كان نابليون بونابرت يمثل فى غزوه لمصر مبشرا بمبادئ الثورة الفرنسية عند فريق من المثقفين المصريين .. ولكنه كان رأس حربى للمطامع الاستعمارية الأوربية بالنسبة لفريق آخر !

وبريطانيا .. كانت بالنسبة للأغلبية مجرد قوة احتلال عسكرى واقتصادى استمرت تنهب مصر لأكثر من سبعين سنة .. ولكنها كانت بالنسبة للأقلية قوة غزو حضارية يمكن أن تستفيد منها مصر .

وأوربا عموما .. مازالت حتى الآن تمثل بالنسبة لجزء من المصريين قوة حضارية متفوقة يجب أن نتعلم على يديها وتأخذ منها التكنولوجيا .. بينما هى بالنسبة للبعض الآخر حضارة كفر وإلحاد وزندقة وانحلال وخنافس يجب أن نبتعد عنها ونحاربها حتى الرمق الأخير .



أين مصر الحقيقية وسط هذا كله ؟ أين مصر التى تحتاج الآن إلى حبنا ؟ وأين مصر التى تستحق حبنا ؟ ثم .. هل يمكن أن يكون هناك أصلا وجه واحد لمصر نتفق عليه .. وتكوين نفسى واحد للمصرى نبدأ منه ؟ لقد امتد التشويش أحيانا ، خصوصا فى فترات ضعف مصر ، يروج لفكرة أن الحديث عن شخصية مصرية يتعارض أصلا مع الحديث عن انتماء مصر للأمة العربية . مبدئيا .. هذا غير صحيح . فالقومية - أى قومية - هى مفهوم سياسى . أما الشخصية الحضارية فهى مفهوم اجتماعى . إن تحديد ملامح الشخصية المصرية لا يتعارض لحظة واحدة مع اعتبارها جزءا من الوطن العربى . بعبارة أخرى : إن شخصية مصر - كمفهوم اجتماعى - لا تتعارض مع انتماء مصر للقومية العربية كمفهوم سياسى . فليس من المنطق أن نتصور أن أفراد أسرة واحدة ، من أم واحدة وأب واحد ،

يجب أن يصبحوا جميعا بأخلاق واحدة أو عادات واحدة أو عقلية واحدة . ومن ناحية أخرى .. فليس من المنطق أن يقوم تناقض بين هذا التميز والاختلاف النفسى والذهنى .. وبين انتمائهم لأسرة واحدة .



إن المصرى الذى يعيش اليوم على أرض مصر .. ربما يرتدى بذلة ، ويتفرج على التليفزيون ، ويقرأ صحيفة ، ويركب أوتوبيسا أو سيارة ، ويتحدث فى تليفون ، ويصعد فى أسانسير ، ويرسل برقية ، ويستضىء بالكهرباء . إنه إذن إنسان متحضر .. إذا كانت الحضارة تعنى تلك الأدوات التى اخترعتها الحضارة الحديثة لهذا العصر . ولكن .. هل يعنى هذا أنه قرر - كمصرى - أن ينحاز تماما إلى هذا العصر ، ويصبح جزءا منه ومتفاعلا معه ؟

لقد ابتلع المصرى طوال تاريخه الطويل تيارات شتى .. بحيث أن جميع الحضارات هى الآن مدفونة فى داخله . إن هذا المصرى الذى هو أنت أو جارك أو زميلك فى العمل ، هو فى الواقع حصيلة عمل سبعة آلاف سنة هى عمر الحضارة فى وادى النيل كله . ودولته عريقة ، بغير أن يعنى هذا أنها عجوز .. وعراقتها تمتد خلفا ستة آلاف سنة . إنها بهذا المعنى أول حضارة فى التاريخ ، وأول دولة سياسية فى كل العصور .

وطوال تلك الفترة الطويلة الممتدة من تاريخنا تراكمت علينا أحداث ومصائب وتحديات وجوائز .. تركت كل منها بصمات لا تنمحى فى تكويننا النفسى والثقافى .. بحيث إنها الآن تشكل جزءا من مشاعرنا نحو أنفسنا ، ونحو جيراننا ، ونحو العالم .

إن الأمثال الشعبية التى تقول الآن «السلطان هو اللى ما يعرفش السلطان» .. أو «زى الحاكم ، مالوش إلا اللى قدامه» .. أو «اللى ياكل مرقة السلطان ، تنحرق شفته» .. أو «اسجد لقرد السوء فى زمانه وداده ما دام فى سلطانه» .. أو «اللى يخش بيت الإمارة ، يخيظ بقه بدوبارة» .. أو «اللى تقول عليه موسى تلاقيه فرعون» .. أو «حاميه حراميه» .. أو «اللى ياكل عيش الأمير ، يضرب بسيفه» .. كل هذا الفولكلور من الأمثال المعادية للسلطة ، أو المستكينة لها ، هى امتداد للوصايا الأخلاقية الفرعونية فى مصر القديمة . التى كانت تؤكد دائما على الصمت كفضيلة وتلج كثيرا على عدم الدخول مع السلطان فى مواجهة مكشوفة .

هذا القدر من الوصايا التي احتفظ بها الفلاح المصرى منذ ستة آلاف سنة إلى اليوم .. هذه الأقراص الكلامية من الحكمة التى تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل .. هى حصيله مجتمع زراعى تكونت منه مصر منذ البداية . إن مصر هبة النيل . هذا صحيح . لكن هذا أيضا له ثمنه . إن الوادى الزراعى شريط ضيق ، تحيط به الصحراء يمينا ويسارا ، والبحر المجهول شمالا ، والصخور جنوبا . إن الوادى هو الحياة . ولكن الهروب من الوادى هو الموت . وإذا كان الحاكم ظالما ، فلا بديل عنه سوى الهروب إلى الموت .

ولكن ، بدلا من أن يهرب المصرى إلى الموت بجسده ، فإنه فضل غالبا أن يهرب إليه بعقله . إنه غالبا - بإسلام أو مسيحية أو بغيرهما - متدين . غالبا يؤمن بالقدر . غالبا يؤمن بأن ما يعجز هو عن حله ، سوف يحله له الزمن . إنه سوف يعيش فى البداية متمردا بحجة أن بلده سوف تؤسس أول امبراطورية فى التاريخ . ولكن ، بمجرد أن تنهار الإمبراطورية ، ويتلاحق الغزو الأجنبى من الرومان والعرب والعثمانيين .. إلى الإحتلال الفرنسى ثم الإحتلال البريطانى .. فإن الظلم يستمر بمجرد أن يبدأ . إنه لا يستطيع أن يهرب ، لأن الوادى محاط بالموت من كل جانب .

وبدلا من ذلك فإنه سوف يختار الاستدارة إلى الداخل . داخله هو . إنه ، منذ انهيار امبراطوريته الأولى ، سوف يصبح إنسانا مغلقا على نفسه كما لو كان يعيش داخل زقاق مغلق . إنه محافظ ، ومتدين ، ومنعزل فى حياته الخاصة ، ويشك فى نويا الآخرين نحوه . إن الظلم قدره ، والجنس ملهاته ، والسماء ملجؤه ، والدين حصنه ، والحياة الأخرى عزائه . ربما من أجل ذلك لم يعرف التاريخ جاكما صرف كل تلك الملايين وأرغم كل تلك الآلاف ، من أجل بناء مقبرة له نسيها الهرم .

مع ذلك .. ففى الحالات التى كان يتطابق فيها طموح الحكام فى مصر مع مصالحها .. كان هذا الفلاح الصغير يرتفع فورا إلى أعلى نقطة فى السماء . من هنا شهد التاريخ المصرى - طوال آلاف السنين السابقة - مرحلة طويلة من صناعة الحضارة .. ثم مرحلة أخرى يصدر فيها الحضارة .. ثم مرحلة من الاكتفاء الذاتى .. قبل أن يبدأ عصر السقوط وتراجع الحضارة .

والحضارة هنا ليست هى التكنولوجيا . فالتكنولوجيا اسم نطلقه على كيس من العدد والآلات . ولكن الحضارة هى حالة عقلية ، وهى بالتالى التى تولد منها التكنولوجيا .

وعندما بدأت الحضارة المصرية في التدهور ، كانت مصر قد أصبحت جزءا من الحضارة العربية/ الإسلامية . وعندما حدثت أول مواجهة حاسمة بين الحضارتين - الأوربية والعربية - فإنها حسمت لمصلحة الحضارة العربية . كانت المناسبة هي الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر .. ولم يكن الميزان قد مال بعد ضد العرب ، وفى صالح أوروبا . إن أوروبا كان عليها أن تلتق جراحها وتنتظر اكتمال حضارتها هى ، قبل أن تعود إلى الشرق مرة أخرى - مبدئنا بمصر - فى القرن الثامن عشر .



فى هذه المرة كان كل شىء محسوما من البداية . وأصبح عبد الرحمن الجيرتى يسجل بأوراقه فى سنة ١٧٩٨ : « لما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود ، فوصلوا إلى أم دينار ، فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر . ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم ، منحلة عزائمهم ، مختلفة آراؤهم ، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون فى ريشهم ، مغترون بجمعهم ، محتقرون شأن عدوهم ، مرتبكون فى أريتهم ، مغمورون فى غفلتهم . وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم . وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين ، بل أشيع فى عرض ابراهيم بك أنهم قادمون من الجهتين ، فلم يأتوا إلا من البر الغربى » .

لم يكن هذا الصدام الحاسم بين الجيش الفرنسى بقيادة نابليون ، والجيش الذى يقوده المماليك سوى صدام بين حضارتين فى جوهره . وفى هذه المرة انتصرت الحضارة الأوربية لأن ميزان القوى كان قد مال إلى صالحها فعلا قبل ذلك عندما نامت مصر اكتفاء بتاريخ مضى .. بغير أن يلاحظ أحد فى الشرق تلك المقدمات . كان الفارق حضاريا .. مع بعض التكنولوجيا . فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر كانت المواجهة بين قوة بحرية هى أوروبا .. وقوة برية هى مصر . فى حينها أحسنت مصر تعبئة واستخدام تفوقها البرى لإلغاء ما تملكه أوروبا من تفوق بحرى . وبينما طورت أوروبا من حضارتها وتكنولوجياها لكى تعيد المواجهة مع مصر فى القرن الثامن عشر .. استمرت مصر فى المواجهة تستخدم الحصان والسيف ، مع استنزال لعنات السماء على العدو المستجد .. بينما يجىء نابليون بالحصان والسيف أيضا ، لكن فى صحبة تكنولوجيا جديدة يمثلها المدفع .. وبالطبع حسمت المواجهة لصالح المدفع .

وكان هذا الاكتشاف مذهلا ومفاجئا بحيث إن الجنود الفرنسيين هبطوا على الحكام المماليك في مصر كما لو كانوا سحرة قادمين من كوكب آخر .
ومن هنا بالضبط بدأت صحوة مصر الحديثة .

لقد خرج الفرنسيون وجاء محمد علي ، لكي يحاول تعويض الفجوة بسرعة بين مصر وأوروبا . واستطاع بحسن التنظيم وبالتعبئة الرشيدة والنقل عن أوروبا نفسها أن يعوض خلال فترة وجيزة الفجوة بين مصر وأوروبا . وبالنتيجة نجح لفترة أن يقيم امبراطورية تغذى طموحه .. بما جعل أوروبا كلها تتوحد ضده ، وضد مصر من بعده .



ولأن مصر في كل مرة كانت تأخذ من الحضارة جرعة أقل مما يجب ومتأخرة أكثر مما يجب ، فإنها لم تستطع في تلك الفترة القصيرة التالية أن تستمر في تعويض باقى الفجوة الحضارية الضخمة بينها وبين أوروبا .. خصوصا مع القيود الفادحة التي فرضتها أوروبا ضد مصر تحسبا لنهضتها من جديد ، وتنهض بها دولة قوية بالمنطقة تتصدى لأوروبا في الجولة التالية . وهكذا حسمت المواجهة من جديد بنجاح بريطانيا في احتلال مصر في سنة ١٨٨٢ ، ولدة ٧٤ سنة بعدها .

ومن المثير للدهشة هنا أن مصر هذه كانت جيوشها قد وصلت - قبل أن تحتلها بريطانيا بثلاث سنوات فقط - إلى أوغندا جنوبا . هذا مثير للدهشة ، لأنه لا يحدث عادة أن تتقلص دولة من امبراطورية إلى مستعمرة في ثلاث سنوات . ولكن هذا كان مجرد وجه واحد للمتناقضات الأخرى التي شكلت مصر ، ومن ثم شكلت المصرى .

● أحد وجوه التناقض هو بين مصر نفسها كدولة ، والمصرى كمواطن . فحيثما كان يتلاقى طموح الحاكم مع مصالح مصر ، فإنه كان يرفع من شأن مصر من غير الاستثمار بدرجة موازية في المواطن المصرى .. تماما كما جرى في حالة بسمارك بأوروبا ، ومن بعده هتلر .

● وأحد وجوه التناقض هو أن مصر فى تلهفها على عبور الفجوة الحضارية سارعت فى الأخذ بالقشور على حساب الجوهر . إن تفوق الغرب عسكريا وماديا أعطى درجة من الهيبة لنظمه السياسية ، بحيث إننا تصورنا أن ما يصلح فى أوروبا لا بد أنه يصلح لنا تلقائيا . هناك برلمان وأحزاب ومساواة للمرأة . هناك نظم تأمينات وقوانين عمل وميكروجيب . إذن

نحن كذلك .. وهكذا . غاب من المعادلة أهم عناصرها ، وهو خلق ونشر قاعدة تعليمية وعلمية تكون هي البنية التحتية التي تنبنى عليها كل نهضة .

● وأحد وجوه التناقض هو الرغبة الشديدة فى الاندماج فى القرن العشرين صاحبتها فى نفس اللحظة ، وربما بنفس الحماس ، رغبة شديدة فى العودة إلى القرن العاشر . إننا قوم أصحاب حضارة ، وتاريخنا البعيد منتصر . إذن ، فالحل هو أن نعود إلى ذلك التاريخ البعيد ونعيش فيه ونتفوق داخله . الحل هو العودة إلى الماضى أو العودة إلى الذات ، أو العودة إلى التراث أو التقليد أو أى عنوان آخر يعيدنا بسرعة إلى أمجاد أجدادنا .



وهنا أيضا توجد العقدة فى أزمة مصر المعاصرة . مصر الربع الأخير من القرن العشرين . فإذا بدأنا من النهاية فإن هذا الإرتداد النفسى والعقلى إلى الماضى لا يمثل علاجا لأزمة مصر الحديثة ، وإنما هروبا من مواجهتها .

أكثر من ذلك .. أقول إن ماضينا - مهما كان مجيدا وبراقا لأهله - لا يزيكنا مطلقا لبناء الدولة العصرية . بل هو سلاسل ثقيلة فى أقدامنا وجبل من الصدا فى عقولنا . إن رؤيتنا لتراثنا يجب أن تكون هى رؤيتنا للمتحف الفرعونى .. رؤية تحمل من الإعتزاز بقدر ما تحمل من الانفصال .

وهذه الكلمات بقدر ما تحمل من سهولة بقدر ما تحمل من الديناميت أيضا . فمنذ عشرينات القرن العشرين حاول طه حسين مثلا أن يفحص علميا جزءا من تراثنا ، فاتهم فوراً بالكفر والإلحاد والزندقة ، بل وخرجت المظاهرات تهتف ضده فى الشوارع والخطابات من مجهولين تهدده بالقتل .

هذا إذن هو أول وجه يجب أن نحبه فى مصر ، وأول وجه يجب أن نرفضه . إن حبنا لمصر فى أزمتها المعاصرة يجب أن يعنى أولا وقبل كل شىء التخلص من هذا الانتقياد الأعمى إلى الماضى .. وهذا الإيمان المضلل بأن ما كان يصلح لأجدادنا منذ ألف سنة يجب أن يصلح لنا الآن . إننا نريد أن نخوض البحر بغير أن تبتل ملابسنا . ونحصل على مزايا حضارة بغير أن ندفع فاتورة الحساب لكى نكون منتجين فيها وليس مجرد مستوردين ومستهلكين لها . إن «النداهة» بمفهوم يوسف ادريس فى قصته ، ومن قبله يحيى حقى فى روايته

«قنديل أم هاشم» ، ومن قبلهما وبعدهما زكى نجيب محمود فى كتبه ، وطه حسين فى تأملاته .. معناها أن نحسم مرة وإلى الأبد هذا التمزق الروحى . ان مشاعرنا نحو الحاضر يجب ألا تكون هى التحمل ولكن الجرأة .. ومع المستقبل هى التحدى وليس الاستسلام .. ومع مصر هى المشاركة وليس التفرج .. الحب اليقظ وليس العشق الأعمى .



أن نحب مصر ؟

نعم . هذا هو الحل . وتلك هى المشكلة . إنها مشكلة لأن حب مصر فيه شىء من الرومانسية التى تجعلنا نقول فى قرانا إن مصر هى أم الدنيا . لا . مصر تستحق الحب بغير أن تكون أم الدنيا . مصر هى فقط جزء من الدنيا . إنها يمكن أن تكون هى كل دنيانا التى تهمنى ، بغير أن تكون هى كل دنيانا التى نعيش فيها . إن عشقنا لها فيه شىء من العمى . ولكن حبنا لها فيه قاعدة من الاختيار . اختيار الأفكار الصحيحة والإيجابية فنؤكدها .. واختيار العناصر الضارة فنرفضها .

أحد ميادين هذا الاختيار هو الماضى السحيق الذى يجب أن نصفه بدلا من أن نعيده .. وندرسه بدلا من أن نعود إليه . لا أحد فى الحياة يعود إلى الوراء إلا فى سن الشيخوخة . ومصر ليست فى حالة شيخوخة . أن «هاركابى» المدير الأسبق للمخابرات الإسرائيلية أصدر كتابا يقذف فيه بالكرة فى وجهنا . إنه يسترجع فى الكتاب ما لاحظته المفكر العربى الكبير ابن خلدون ، حينما لاحظ أن انهيار اليهود فى الماضى يرجع إلى ضعف العصبية - روح الجماعة - وإلى أنهم عانوا نتيجة لذلك من المذلة والهوان حينما تركوا أنفسهم نهبا لذكريات أمجادهم السابقة . حسنا . أن «هاركابى» يخرج لسانه من صفحات الكتاب وهو يقول : يبدو أن البندول الآن قد دار دورة كاملة . يعنى : يبدو أن العرب الآن تركوا أنفسهم نهبا لذكريات أمجادهم السابقة !

ولأن الإنسان لا يعيبه أن يرى جزءا من عيوبه فى عيون عدوه ، فإنه لا يسىء إلينا أن نرى جزءا من الحقيقة فى كلمات «هاركابى» . إن فريقا كاملا من المثقفين المصريين ، بحسن نية شديدة ورغبة صادقة فى العلاج ، يتمسكون بهذا الماضى كمنقطة للبداية . بداية الدراسة كما فى حالة الدكتور محمد حسين هيكل ، أو بداية للحياة كما فى حالة عباس العقاد ، أو بداية للتصحيح كما فى حالة طه حسين .



نحب مصر؟

نعم . هذا هو الحل . وتلك هي المشكلة . إنها مشكلة لأن علينا - كجزء من هذا الحب - أن نرفض ما قاله موسى دايان وزير الدفاع الإسرائيلي عقب هزيمتنا في يونيو ١٩٦٧ : «إن العرب يعيشون في عالم غير حقيقى . وهم يفعلون ذلك غالبا مثلهم كمثل الشخص الذى يحتاج إلى الحشيش حتى يحس أنه يعيش فى جنات عدن . فالحقيقة بالنسبة لهم هى الجحيم . والعلاج هو ابتلاع حبة من حبوب الكذب .. التى تعطى لهم الإحساس بالجنة» .

إن علينا أن نرفض هذا المفهوم الإسرائيلى لأن المصريين هم الذين أثبتوا عمليا كذبه من الأساس . لم يترك المصريون اسرائيل فى أوامها تلك بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ سوى أسابيع قليلة ، وبعدها بدأ الجحيم المضاد . بدأ قبول التحدى والنهوض من جديد . فى نفس الوقت فإن علينا ، كجزء من حبنا لمصر ، أن نغضب لما غضب له حافظ ابراهيم حينما قال شعرا فى لحظة انفعال عن بلده مصر :

وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضبى
أمور تمر ، وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب

أقول أنها شطحات شاعر فى لحظة غضب وانفعال . لكن التاريخ لا تصنعه الانفعالات . تصنعه الحسابات الدقيقة والعقول اليقظة . فلنتوقف هنا مبدئيا أمام ثلاث وقائع فى تاريخنا القريب ، تعكس بالضبط روح الجماعة ، أو روح الفريق ، التى عبر عنها ابن خلدون كشرط لنهضة الأمم وقوتها .

● فى الحالة الأولى نحن أمام مصر وهى تستعيد بعض حقوقها المنهوبة من وحوش الغاية الدولية . حالة تأميم قناة السويس . القناة التى كان يفترض أن تكون لمصر فأصبحت مصر للقناة . وأصبح من الآمال المؤجلة لكل جيل فى مصر هو استعادة القناة . هكذا وقف جمال عبد الناصر ذات مساء بالإسكندرية فى يوليو ١٩٥٦ لكى يعلن قرارا مصريا بتأميم شركة قناة السويس .

إنها قانونا وعدلا حق سيادى لمصر ، ومن قديم . لكن الجديد هنا متعدد . الجديد هو إدراك مصر فى حالتها هذه أن الحقوق تؤخذ غالبا وليس لمجرد أنها حقوق . والجديد

أيضا أن يؤخذ قرار التأميم بمعرفة وحسابات وتجهيزات مسبقة سرا ، ولأكثر من سنتين . من التجهيزات مثلا مبادرة مصر بالاعتراف دبلوماسيا بجمهورية الصين الشعبية .. خرقا للحصار الدولي الذي فرضته أمريكا على الصين منذ استيلاء الشيوعيين على السلطة في بكين سنة ١٩٤٩ . والاعتراف المصرى بالصين لم يكن إعجابا بالشيوعية والشيوعيين ، ولكن تحسبا لحصار دولى متوقع ضد مصر بمجرد إقدامها على تأميم قناة السويس .

أما الجديد الآخر فهو حسن ودقة اختيار مصر لفريق من أبنائها أصحاب الخبرة ليقوموا بتنفيذ قرار التأميم . فالتحدى الواضح هنا ، بعد قرار التأميم ، هو أن تنجح مصر فعلا فى تشغيل وإدارة الملاحه فى قناة السويس . لو وقف العالم كله مع مصر حقا وعدلا .. ثم فشلت مصر عمليا فى تشغيل وإدارة قناة السويس .. فإن نفس هذا العالم كله سينقلب ضد مصر .. خصوصا وقد خرجت الوحوش الجريحة فى الغابة الدولية مهددة ومتوعدة بجعل مصر أمثولة وعبرة لكل من يتخيل من الدول الصغرى أن استعادة الحقوق المنهوبة ممكنة . ولم يكن هذا من فراغ . فقبلها بثلاث سنوات فقط كانت وحوش الغابة قد جعلت من محمد مصدق رئيس وزراء إيران ، ومن إيران كلها ، عبرة لمن يعتبر . محمد مصدق رئيس وزراء منتخب شعبيا .. وقراره بتأميم شركة البترول الإيرانية أمنية شعبية من قديم . وحينما هددت بريطانيا بقطع رقبة مصدق وايران من بعده عقابا على التأميم ذهبت حكومة إيران بقضيتها إلى محكمة العدل الدولية ، فأقرت المحكمة علنا وصراحة بحق إيران فى تأميم الشركة . لكن القانون والعدالة هما أبعد ما يمكن عن انشغالات وحوش الغابة .

وهكذا .. بخليط من التآمر والعمل السرى المشترك بين بريطانيا وأمريكا جرى تدبير انقلاب أسقط محمد مصدق وحكومته وأعيد شاه إيران الهارب إلى عرشه وعادت وحوش الغابة تنهب بترول إيران من جديد .

شىء من هذا كان يدبر لمصر عقابا لها على قيامها بتأميم قناة السويس . وفى هذه المرة تحالفت بريطانيا وفرنسا ، زائد اسرائيل ، لضرب مصر عسكريا واستعادة السيطرة على قناة السويس . الفشل كان مدويا . لكن نجاح مصر هنا يرجع لأسباب عديدة ، من أبرزها حسن التخطيط ودقة الحساب وذلك الفريق من أبنائها الذين باشرؤا عملية التأميم ثم التشغيل والإدارة بنفس مستوى الكفاءة الدولية .. وأفضل .

ومع أن المهندس محمود يونس وفريقه المختار لتشغيل القناة كانوا يعيشون الليل والنهار فى مواقع العمل ويتعاملون بخبرة وكفاءة ونكران للذات مع هذا التحدى الذى فرضته مصر

على أبنائها .. إلا أن كلا منهم كان يرى أنه لا يفعل سوى تأدية واجبه . إن محمود يونس مثلا ، وأيا من فريقه ، لم يكتب مذكراته . وفي كل مدن القناة الثلاثة .. لن نجد حتى الآن ميدانا ، أو حتى شارع ، يحمل اسم محمود يونس أو أى من رفاقه .

● فى الحالة الثانية نحن أمام مصر أيضا وهى تخوض تحديا آخر مع أبنائها . إنه حلم إقامة سد عال جنوب أسوان يقوم بترويض نهر النيل الذى يعيث فسادا بين سنة وأخرى ، فضلا عن أنه يهدر معظم فيضائه بينما أراضى مصر تتحرق شوقا إلى مياه تتبج لمصر التوسع بشرطها الأخضر الضيق من الأراضى المزروعة .

فى هذه الحالة أيضا كانت وحوش الغابة الدولية تراوغ ، ثم ترفض صراحة ، قيام مصر ببناء السد العالى جنوب أسوان . . بالضبط لأنها تدرك أن قيام السد العالى وما ستيحيه من أراضى جديدة وكهرباء رخيصة سيصبح المقدمة الأكيدة لنهضة اقتصادية جادة فى مصر .

جاء الشروع فى بناء السد العالى مباشرة فى أعقاب نجاح مصر فى تأمين قناة السويس ، وأصبحت أنظار العالم تتطلع إلى مصر ، معظمها بإعجاب ، وبعضها بشماتة وتطلع لتحويل مشروع السد من أمنية كبرى إلى فضيحة عظيمة . وحينما نجحت مصر بعد سنوات فى بناء وتشغيل السد العالى كانت الأسباب متعددة . لكن أهمها من زاوية اهتمامنا هنا هو حسن اختيار مصر لذلك الفريق من أبنائها الذين يمتلكون الخبرة والمعرفة والإرادة لقبول التحدى . فريق برئاسة المهندس محمد صدقى سليمان .

ويوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة ، كان المرء يذهب إلى جنوب أسوان ، ليجد عشرات الآلاف من المصريين يعملون ليل نهار لإنجاز الحلم الكبير ، بينما فى أعلى نقطة من الجبل توجد لافتة ضخمة مضاء ليل نهار وتتعدل يوما بعد يوم حتى يراها أولئك الآلاف . لافتة تقول : باق من الزمن ٢٦٧٠ يوما .. ٢٦٦٩ يوما .. ٢٦٦٨ يوما ، وهكذا . وكان المرء ، لكى يقابل المهندس صدقى سليمان ويختطف بعضا من وقته . عليه أن يذهب إليه فى الخامسة صباحا لأنه بالضبط موعد خروجه إلى مواقع العمل بين العمال والمهندسين والخبراء .

ومرة أخرى ، كان صدقى سليمان وكل فريقه لا يرون فيما يفعلونه شيئا خارقا ولا استثنائيا . يرون فقط أنهم يقومون بواجبهم نحو مصر التى أحبوا وجعلتهم فى قلب

التحدى . هو أيضا لم يكتب مذكراته ، بغير أن نذكر أنه لا يوجد فى أسوان ميدان أو شارع باسمه .

● فى الحالة الثالثة نحن مع مصر وأبنائها حينما يتم ضبطهما معا على موجة واحدة . موجة من الحب والعطاء والتحدى . فبعد ضربة يونيو ١٩٦٧ اعتبرت اسرائيل أنها أزالمت مصر من على الخريطة لجيولين تاليين على الأقل . ولم يكن هذا من فراغ . فبعد انتصار اسرائيل كدولة مستجدة على الجيوش العربية فى سنة ١٩٤٨ تكيفت مصر الضعيفة المهزومة مع الوضع الجديد وسجلت اتفاقات الهدنة هذا التكيف من مصر وباقى الأطراف العربية .

لكن الحسابات بعد يونيو ١٩٦٧ اختلفت جذريا . وهى اختلفت بقرار مصرى واضح : لن نتكيف أبدا مع الهزيمة . سنبتلع مراراتنا ولنعلق جراحنا ونضم صفوفنا لكى ننهض من جديد . فى هذه المرة أصبح الجهد المطلوب مضاعفا : إنه جهد النهوض وقوفا من جديد .. مصحوبا فى نفس اللحظة بجهد إعادة بناء القوات المسلحة من الصفر . هذا يشبه إجراء عملية جراحية دقيقة لمريض بينما هو فى نفس اللحظة يصعد درجات السلم . وفى هذه المرة أيضا بدا واضحا وإصرار وحوش الغابة الدولية على جعل حرب يونيو ١٩٦٧ هى الصفحة الأخيرة فى كتاب مصر .. بينما مصر تصر على أنها مجرد فصل عابر فى كتاب ما يزال مفتوحا .

ومن زاوية اهتمامنا هنا فإن تلك الروح من الإصرار والتحدى ، المقترنة بأقصى درجات المعرفة والخبرة . يلخصها شخص الفريق (الراحل) عبد المنعم رياض الذى جرى اختياره لمنصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة الجديدة .. وهو المنصب الذى يمثل بطبيعته العقل المفكر والمخطط للقوات المسلحة . لقد قبل الرجل بالتحدى الضخم الذى أصبح فى بؤرته ، مع كل ضابط وجندى آخر فى ذلك الجيش الجديد . جيش المليون جندى . جيش الأسلحة الجديدة والحرب الإلكترونية ضد عدو يتصرف كامتداد عضوى للدولة الأكبر والأقوى فى العالم : أمريكا .

سواء لطبيعة المهمة ، أو لطبيعة الشخص . فإن كل عملية إعادة بناء القوات المسلحة المصرية الجديدة كانت سر الأسرار . فقط يتابعها المصريون ويتفاعلون معها من خلال أحداث وتطورات متلاحقة فى حرب استنزاف يشارتها مصر ضد الإحتلال الإسرائيلى . تطورات تلاحقت منذ الشهر التالى مباشرة لهزيمة يونيو ١٩٦٧ حتى النجاح النهائى فى

إقامة حائط الصواريخ الشهير بمحاذاة الضفة الغربية لقناة السويس ، وهو المقدمة الحتمية للعبور تحريرا للأراضى المحتلة .

لم يكن عبد المنعم رياض موجودا حينما اكتمل بناء حائط الصواريخ هذا فى الأسبوع الأول من أغسطس ١٩٧٠ . كان قد رحل فى مارس سنة ١٩٦٩ . رحبلا مدويا فجع قلوب المصريين جميعا . فذات صباح كان عبد المنعم رياض يتفقد تطورات القتال فى المواقع المصرية بالخط الأمامى على الضفة الغربية من قناة السويس . زيارة تفقدية قام عبد المنعم رياض بالمئات منها من قبل .. سرا كالمعتاد . لكن فى ذلك اليوم من مارس ١٩٦٩ شاء القدر أن يصاب عبد المنعم رياض بقذيفة من وابل القذائف التى يمطر بها الإحتلال الإسرائيلى القوات المصرية فى جبهة قناة السويس . الإصابة كانت قاتلة للتو . وفى تشييع جثمان عبد المنعم رياض لم يكن جمال عبد الناصر فى المقدمة فقط .. كان معه الشعب المصرى بكامله ، بغير أن نقول الشعوب العربية أيضا .

الخسارة كانت فادحة . لكن بعض العزاء فيما جرى كان اكتمال المرحلة الحرجة فى إعادة بناء الجيش لخوض الحرب الحديثة . حرب هى بطبيعتها التعبير العملى عن روح الجماعة أو روح الفريق .. وتحديدأ الفريق المتخصص الخبير المدرك لأهمية دخول هذا التحدى بهذا الجيش الجديد . جيش المليون مقاتل .

للحرب سياق آخر . لكن ما يعنينا هنا هو تلك الحقيقة الحاكمة التى لم تأخذ حقها من الاهتمام والدراسة . حقيقة أن مصر ، فى لحظة الشدة والمحنة والتحدى ، لم تكن ستنجح فى إقامة جيش المليون جندى هؤلاء إلا لأنها نجحت سابقا فى إقامة نظام التعليم المجانى .. حتى الجامعة . فى لحظة الشدة والمحنة والتحدى لم يكن الجيش الجديد الذى تحتاجه مصر هو مجرد زحام من الجنود ، أو زحام من الأسلحة . ماتحتاجه مصر فى تلك اللحظة الفاصلة من تاريخها كان أسلحة حديثة ، وجنود متعلمين قادرين على التفاعل مع تلك الأسلحة المتطورة الحديثة ، والإلكترونية فى معظمها . من هنا احتاجت مصر فجأة إلى مليون متعلم . ومن هنا نجحت مجانية التعليم . بعد سنوات من التراكم ، فى إسعاف بمصر بالمليون جندى .. متعلم .

فى الدولة العصرية هناك جانبان حيويان تماما فى متانة النسيج الاجتماعى : نظام التجنيد الإجبارى .. ونظام التعليم المجانى . فى التجنيد الإجبارى يدفع الأبناء ضريبة

الوطن لمدة محددة ، بلا تمييز وبغير استثناء . وفى التعليم المجانى يتساوى الغنى والفقير ، والجنوبى مع الشمالى ، فى الحصول على خدمة تعليمية إجبارية توفر أيضا مفتاحا إلى الانصهار الاجتماعى والاندماج مع المستقبل . أحد وجهى العملة هنا هو أن يحب المصريون .. مصر . أما الوجه الآخر فهو أن تحب مصر أبناءها . هذا يعيدنا من جديد إلى مشكلة .. أن نحب مصر .



إن معنى أن تكون مصريا ، الآن وفى هذه اللحظة ، معناه بالضرورة هو أن نرفض أشياء كثيرة ، ونؤمن بأشياء كثيرة ، ونحلم بأشياء كثيرة .

معناه أن نرفض مثلا ذلك القدر الرومانسى من العاطفة .. لأن تحويل مصر فى خيالنا إلى مجرد نجوم فى السماء وذهب فى المياه وحرير فى صفائر الشعر .. يعنى أن مصر بالنسبة لنا مفهوم غير عقلانى . ويعنى أيضا أننا لا نحس بها فى داخلنا ونحن نعمل ، ونحن نركب الأوتوبيس أو السيارة ، ونحن نصنع الحديد والصلب . أن مصر هى شىء عملى جدا . شىء نشترك فيه جميعا . شىء سنعبر به إلى المستقبل أو يغرق بنا جميعا فى بحار الماضى .

مصر هى أن نعمل بامتيياز ، ونكتب بضمير ، ونتعلم بوعى ، ونتكلم بصدق . مصر هى كل هذه الالتزامات العملية جدا فى حياتنا اليومية . مصر هى أن نؤمن بأن كل القضايا الكبرى - ابتداء من الإحتلال الإسرائيلى إلى أزمة المواصلات - هى حصيللة قضايا صغرى وأدوار صغرى نقوم بها جميعا فى حياتنا اليومية . مصر هى أن نرفض التجريد فى نظرتنا إليها . إنها ليست نجمة فى السماء ولا بيتا فى خيال الشعراء . إنها وظيفة نؤديها بضمير ، ومهنة نمارسها بشرف ، وقضية نخوضها بعدل ، وفحص نمارسه بنزاهة ، ومراجعة نقوم بها بتجرد وموضوعية .

إن علينا أن نرفض إذن تلك النظرة الأحادية للناس والحقائق والتواريخ . إن كل جيل يأتى ليصور لنا معاركه وكأنها الأخيرة ، وراياته وكأنها الأعلى ، ومثالياته وكأنها النهائية . ليكون . فقط بغير أن يودى هذا بالضرورة إلى أن يكذب الآباء على الأبناء . ويضحك السياسيون على الرعايا . ويصدر القضاة الملقون أحكامهم الغيائية . إن الحقائق

المطلقة .. مثل ان أحمد عرابي وطني جدا أو خائن تماما .. وثورة ١٩١٩ هي خاتمة الثورات أو لا شيء على الإطلاق .. والماضي هو الخير كله أو الشر النهائي .. هي قضايا يجب أن نحسمها بعين الفحص وليس بعين التعصب .



ومعنى أن تكون مصريا - الآن وفي هذه اللحظة - معناه بالضرورة ألا نخجل من فقرنا . إن المدرس المصرى فى الكويت أو السعودية أو ليبيا لا يحصل على مرتبه فى آخر الشهر لمجرد أنه أكثر فقرا .. ولكن أيضا لأنه أكثر حضارة . إن مصر لا وظيفة لها فى الشرق الأوسط إلا إذا كانت هى الأكثر حضارة . فلتكن السعودية هى كعبة الشرق ، ولبنان هى سمسار الشرق ، وسوريا هى حصن الشرق ، والسودان هى مطعم الشرق . ولكن مصر هى جامعة الشرق .

إن مصر قد لا تستطيع أن تكون أغنى فى وقت قصير . هى تستطيع لو قويت عزيمتها ، وقد استطاعت ذلك فعلا فى جيل مضى . ولكن .. إلى أن نسترد العزيمة والإرادة .. فإن مصر فى الواقع لا يجب أبدا أن تتنازل عن - أو تفرط فى - وظيفتها الكبرى : إنها الأكثر تحضرا .

ولأنها كذلك ، فإن منها فقط يخرج طه حسين ومحمد عبده وعبد الله النديم ومحمد عبد الحليم عبد الله وعباس العقاد وأم كلثوم ومصطفى مشرفه وأحمد زكى وسلامه موسى ومحمود شلتوت ومحمد عبد الوهاب وأحمد لطفى السيد وأحمد شوقى .. إلخ .. إلخ .

ولأنها كذلك ، فإن هزيمة الشرق كله تبدأ من هزيمتها . وانتصاره يبدأ من انتصاراتها . وفى كل الصدامات العسكرية الكبرى التى هزت منطقتنا - ابتداء من روما القديمة إلى الصليبيين إلى المغول إلى الاستعمار الأوروبى .. كانت المصائب الكبرى تدخل إلى المنطقة يوم تضعف مصر .

إن معنى المصرية إذن هو أنه .. وسط التليفون الذى لا حرارة فيه .. والكهرباء التى تنقطع .. والمسكن الذى لا يتوفر .. والأوتوبيس الذى لا يتوقف .. والغلاء الذى لا يرحم .. يجب أن نتمسك تماما بتفاؤلنا .. وقدرتنا على أن نبدأ البناء من جديد .. وبسواعدنا نحن قبل كرم الآخرين .



وأخيرا .. فإن معنى أن تكون مصريا ، الآن وفي هذه اللحظة ، هو أن تحلم أيضا بأشياء كثيرة .

نحلم مثلا بأن نتفوق في هذا التحدى الحضارى من داخله . ليس تفوق المتفرج ، فالمتفرج لا يصنع شيئا سوى أن يتفرج . ولكن تفوق المشارك . تفوق المصرى الذى يصدأ عقله حينما تخونه الدولة .. ولكنه يلمع وبيتكر ويجدد ويضيف حينما تحبه مصر . إن العقل هنا لم يتغير ، فالمصرى واحد فى الحالتين . إن ظروفه فقط هى التى تتغير . إن المهندس فى السد العالى والقبطان فى قناة السويس والجندى فى حرب الاستنزاف أحس أن مصر تعطيه دورا لكى يلعبه .. وتحديا لكى يواجهه .. بحيث إنه كان يحقق فى سنة ما استبعده عدوه فى خمسين .

لكن فى نفس اللحظة على مصر أن تعيد اكتشاف حقيقة أن قوتها هى بمستوى قوة مواطنيها .. وثروتها هى بمقدار مشاركة كل واحد من شعبها . وفى نهاية المطاف فإن مصر سبقت اليابان فى القرن التاسع عشر .. ولكن اليابان سبقت مصر فى جولة تالية .. فقط لأن تفوق اليابان جاء من داخل الحضارة وليس من الابتعاد عنها والاكتفاء بالاحتجاج ضدها . نريد أن نحلم ، كمصريين ، بأن تستثمر مصر كل جيل من أبنائها فى موعده . وبأن يضيف كل جيل إلى انجازات الجيل الذى سبقه ، لا أن يعيش عالة عليها أو يفرط فيها ، غير مستوعب أصلا لقدر التضحيات التى تحملها جيل سابق وهو يسترد لمصر ، والمصريين ، حقوقا منهوية ، ومن وحوش الغاية الدولية وغصبا عن إرادتها . نحلم بأن يرتفع صوتنا بغير صخب .. ونتفوق بغير أن ندمر .. ونعلو بغير أن نتعصب .. ونتقدم بغير أن نحقد .

نحلم بأن يمنحنا الله القدرة على قبول الأشياء التى لا يمكننا تغييرها .. والشجاعة على تغيير الأشياء التى نستطيع تغييرها .. والحكمة لكى نعرف الفرق بين الاثنين .

الدستور .. بين النظام الرئاسى والنظام البريطانى



البيضة فى مصر بمليم ...^(٥)
علبة السجائر ماركة «العنبرول» بعشرة قروش .
الرواية المقررة على طلبة البكالوريا هى «زهرا ب ورستم» .
على أفندى الكسار بربرى مصر الوحيد يمثل رواية «البربرى فى الجيش» .
نابغة مصر فى التمثيل يوسف بك وهبى يمثل رواية «أعين الثعبان» .
المستر سمسون رئيس النيابة المختلطة بالنصورة يحضر حفل مدرسة المنصورة
الأميرية .

حسين بك حجازى رئيس الفريق المصرى هزم بفرقة منتخب الجيش الإنجليزى فى
القاهرة .

و ... نحن فى يوم ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ .

اليوم خميس . الشمس ساطعة . البلد فى إجازة ولو أن هذا غير واضح .. فالسكان عددهم
محدود - بالضبط : ١٣ مليوناً و ٢١٧ ألف نسمة - هم كل السكان فى مصر فى ذلك اليوم .
من بين كل مائة من السكان هناك ٢٦ يموتون بعد سنة من مولدهم . المرض وسوء التغذية سبب
ذلك . الذين يعرفون القراءة والكتابة فى مصر - مجرد القراءة والكتابة - عددهم ١٩٧ فرداً
فى كل ألف من السكان . الصحف فى مصر محدودة . الأخبار فيها محدودة أيضاً . منها تلك
الأخبار المنشورة فى مقدمة هذه السطور . منها أيضاً : صورة الأسد الحبشى الذى أهده جلالته
امبراطور الحبشة إلى الملك فؤاد ملك مصر ، فأمر بإرساله منحة إلى حديقة حيوانات الجيزة .

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٦٨/١/١٣ .

أكرر : نحن في ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ . ليس الأسد الحبشى هو المنحة الوحيدة التي قدمها الملك فؤاد إلى الشعب . لقد أعطى للشعب منحة أخرى - مثل الأسد الحبشى - هي دستور أصدره بأمر ملكى منذ سنة . بالتحديد فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ ، والأمر الملكى رقمه ٤٢ . وفى هذا اليوم - ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ - كان الملك متوجها لافتتاح البرلمان الذى أقيم تنفيذا لهذا الدستور .

الدستور يضم ١٧٠ مادة . والدستور يقرر أن مصر دولة ملكية ، والعرش فيها وراثى لأسرة محمد على ، ونظام الحكم .. برلمانى .



ما هو النظام البرلمانى ؟

إنه أحد أشكال ثلاثة للأنظمة السياسية يعرفها القانون الدستورى . فهناك أولا النظام الرئاسى .. وهو يعطى الغلبة للسلطة التنفيذية (الحكومة) . وهناك ثانيا النظام البرلمانى .. وهو يساوى بين السلطات الثلاث فى الدولة : السلطة التشريعية (البرلمان) .. والسلطة التنفيذية (الحكومة) .. والسلطة القضائية . وفى هذا النظام تتساوى السلطات الثلاث .. فلا واحدة منها تسود الأخرى . ثم هناك - ثالثا - نظام يسمى «حكومة الجمعية» .. وفيه تكون الغلبة للسلطة التشريعية .

والنظام الثالث نادر فى التطبيق . وعلى ذلك فمعظم الأنظمة السياسية المعاصرة تأخذ بواحد من اثنين : النظام الرئاسى .. أو النظام البرلمانى .

وهناك نقطتان للبحث هنا . فأولا .. هناك خصائص لكل نظام منهما . وثانيا .. هناك تاريخ طويل لمصر مع كل من النظامين . ثم ندخل فورا فى خصائص النظامين .



إن أول مرة طبق فيها النظام الرئاسى كانت فى دستور الولايات المتحدة ، الذى صدر فى سنة ١٧٨٧ . ومن يومها إلى الآن مازالت الولايات المتحدة هى أبرز مثل للنظام الرئاسى . والنظام الرئاسى له عدة خصائص محددة . فهو يقوم أولا على وجود رئيس دولة منتخب من الشعب ويجمع بين وظيفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة . والمقصود من ذلك

هو أن تتحقق المساواة بين السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية .. بين الحكومة والبرلمان . فالائتلاف ينتخبهما الشعب . ومن ثم فالائتلاف يتعاملان معا على قدم المساواة . هذه المساواة نظرية .. لأن التطبيق يثبت بعد ذلك رجحان كفة رئيس الجمهورية في مواجهة السلطة التشريعية كما حدث في الولايات المتحدة .

والصفة الثانية للنظام الرئاسى هي أنه يقوم على توزيع الاختصاصات على أساس الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية . فرئيس الدولة ينتخبه الشعب مباشرة .. وهو الذى يعين وزراءه ويقيلمهم .. وهم مسئولون أمامه عن أعمالهم .. وليس لهم سوى تنفيذ سياسة الرئيس . ويجوز له أن يقيلمهم إذا لم يفعلوا ذلك .

وفى النظام الرئاسى أيضا لا يوجد مجلس للوزراء . فما دام رئيس الجمهورية المنتخب من الشعب هو صاحب السياسة التنفيذية العليا ، فليس هناك محل لأن يكون معه مجلس وزراء مسئول أمام البرلمان أو أحد مجلسيه .

وفى النظام الرئاسى كذلك تنفصل السلطة التنفيذية عن السلطة التشريعية . والسلطة التشريعية فى الولايات المتحدة مثلا مكونة من مجلسين : مجلس النواب ، ومجلس الشيوخ . وليس للسلطة التنفيذية - بناء على الدستور الأمريكى - أن تقترح القوانين . فالتشريع من اختصاص السلطة التشريعية وحدها .

ونجد فى التطبيق الأمريكى للنظام الرئاسى أيضا أن السلطة القضائية هي الأخرى منفصلة عن السلطتين التنفيذية والتشريعية .. فالقضاة يتولون وظائفهم عن طريق الانتخاب .

وأول ما نلاحظه على النظام الرئاسى - فى نموذج الأمريكى على الأقل - هو أنه يعطى سلطات واسعة لرئيس الدولة على حساب السلطة التشريعية . هذه الظاهرة لها أسباب .

أولا : أن واضع الدستور الأمريكى فى سنة ١٧٨٧ لاحظوا تعسف البرلمان الإنجليزى ضدهم عندما كانت تستعمرهم انجلترا .. فأرادوا بالتالى عند وضع دستورهم أن يحدوا من سلطة البرلمان .

ثانيا : أن رئيس الدولة فى الدستور الأمريكى ينتخب كل أربع سنوات . وعندما ينتخبه الشعب فإنما ينتخبه بناء على برنامج محدد يعرضه الرئيس المرشح . فإذا لم ينفذ البرنامج بعد انتخابه فإن الشعب يملك أن يسقطه فى الإنتخابات التالية .

هذا إذن دفع واضعى الدستور الأمريكى إلى تقوية سلطة رئيس الدولة فى مواجهة السلطة التشريعية . والذى حدث فى التطبيق هو أن كفة رئيس الدولة رجحت فى الميزان .. أكثر من كفة سلطة الشعب فى إلزامه ببرنامجه . السبب ، كما يقول هارولد لاسكى ، هو «أن من الأمور المعروفة لنا جميعا أن الحملة الإنتخابية هى عبارة عن أربعة أشهر من الفساد» .

وفى تلك الحالة تتحول عملية الانتخاب الشعبية إلى .. توقيع على بياض .. يقدمه الشعب إلى الرئيس المنتخب . فالشعب يعطى توقيعه مقدما دون أن يعرف بالضبط .. ماهى الالتزامات التى سيتحملها .

ومع ذلك فنحن نلاحظ أن بعض فقهاء القانون الدستورى فى العالم يبدو إعجابهم بالنظام الرئاسى المطبق فى الولايات المتحدة . إن السبب فى ذلك هو ما يتمتع به النظام الرئاسى هناك من الإستقرار .. وهو أمر تفتقر إليه أنظمة برلمانية كثيرة .

ولكن هذا الرأى عليه ردود كثيرة .. وهى أيضا ردد يقدمها أساتذة آخرون فى القانون الدستورى .

فأولا : أن النظام الرئاسى الأمريكى لا يحتكر وحده صفة الاستقرار . هناك نظم برلمانية أخرى مستقرة .. كإنجلترا والسويد وهولندا والدانمرك .

وثانيا : أن الاستقرار السياسى لا قيمة له إذا لم يصاحبه استقرار إدارى واستقرار اقتصادى . والجهاز الإدارى فى أمريكا يعانى من .. نظام الغنائم . وهو نظام تعيين كبار الموظفين بناء على حزبهم السياسى ، وليس بناء على كفاءتهم وحدهما .

ثالثا : إن كثيرا من الدول التى اقتبست النظام الرئاسى الأمريكى .. تحولت فيها السلطات الواسعة لرئيس الجمهورية إلى سلطات ديكتاتورية .. وهذا واضح فى كثير من جمهوريات أمريكا اللاتينية .

رابعا : إن توسيع سلطة الرئيس فى النظام الأمريكى يقابله أنه لا يملك سلطة حل المجلس النيابى . ويقابله أيضا أن مجلس الشيوخ يشترك مع الرئيس فى بعض اختصاصاته الهامة .. كتعيين الوزراء والسفراء والقناصل وقضاة المحكمة العليا وكبار الموظفين . فالدستور الأمريكى يشترط موافقة مجلس الشيوخ على تعيينهم . صحيح أن

العرف هناك جرى على ألا يعترض مجلس الشيوخ على اختيارات الرئيس .. من باب المجاملة .. ولكنه دستوريا يملك ذلك . وقد اعترض فعلا في ست مرات . وعموما .. فقبل أن نترك النظام الرئاسي .. علينا أن نلاحظ أنه يتميز بأمرين أساسيين :

فأولا : الحكومة غير مسئولة سياسيا أمام البرلمان .. يعكس النظام البرلماني .

وثانيا : أن رئيس الدولة هو نفسه رئيس الحكومة .

هذا إذن هو النظام الرئاسي وأشهر تطبيق له . إنه يعتمد على وجود انفصال شبه مطلق بين السلطات الرئيسية الثلاث في الدولة : التنفيذية والتشريعية والقضائية . ورئيس الدولة هو أيضا رئيس الحكومة . وهو ينتخب مباشرة من الشعب .. وبالتالي فهو في مركز قوى مواجه للبرلمان .



ولكن النظام البرلماني يختلف عن ذلك .. وهو النظام السائد في أغلب دول العالم . وهو يطبق في دولة ملكية .. أو في دولة جمهورية . ولكن له خصائص واحدة في كل من الدول الملكية والدول الجمهورية .

وللنظام البرلماني خصائص محددة هو الآخر . فقواعده الأساسية تنحصر في مجالات ثلاثة هي :

- برلمان منتخب .
- رئيس الدولة .
- الوزارة .

فبالنسبة للبرلمان .. نجد أن وظيفته في النظام الرئاسي الأمريكي مثلا هي التشريع فقط . أما في النظام البرلماني فوظيفة البرلمان تزيد عن مجرد التشريع . إنها تشمل مراقبة الحكومة (السلطة التنفيذية) ومحاسبتها عن أعمالها وإسقاطها في حالة الضرورة . ومن ثم .. ففي النظام البرلماني يكون للبرلمان ثلاث وظائف : التشريع .. وإقرار الضرائب والرسوم .. ومراقبة الحكومة ومحاسبتها وسحب الثقة منها . هذا بالنسبة للبرلمان .

أما بالنسبة لرئيس الدولة .. ففي النظام البرلماني لا يكون رئيس الدولة هو رئيس الحكومة . فإذا كانت الدولة ملكية فرئيس الدولة هو الملك . وإذا كانت جمهورية فرئيسها هو رئيس الجمهورية . وفي الحالتين يكون رئيس الحكومة هو رئيس الوزراء .

ويتميز النظام البرلماني أيضا بأن رئيس الدولة غير مسئول أمام البرلمان .

ولكن أعمال الدولة تتطلب وجود شخص مسئول يمكن محاسبته . ولذلك فالوزراء هم المسئولون سياسيا أمام البرلمان عن أعمال الملك مثلا .. ورئيس الحكومة – والوزراء – مسئولون عن أعمالهم أمام البرلمان .

وليس معنى ذلك أن رئيس الدولة في النظام البرلماني ليست لديه سلطات . لا . أن لديه سلطة تعيين وعزل الوزراء . ولديه سلطة حل البرلمان ، ما دام البرلمان من حقه سحب الثقة بالحكومة .

أما بالنسبة للوزارة في النظام البرلماني فهي مسئولة تضامنيا عن سياستها أمام البرلمان . والوزراء مسئولون فرديا أيضا أمام البرلمان . والوزارة عليها أن تستقيل فورا إذا سحب منها البرلمان ثقته .

والمسئولية الجماعية التضامنية للوزارة هي أهم الخصائص المميزة للنظام البرلماني . وينفرد النظام البرلماني وحده بوجود هذه المسئولية التضامنية للوزراء في أي دستور لأي دولة يجعل النظام السياسي القائم في ظل هذا الدستور نظاما برلمانيا .

وإلى جانب ذلك يتميز النظام البرلماني بازدواج الجهاز التنفيذي . فهناك رئيس الدولة ، وهناك رئيس الحكومة . الأول غير مسئول عن أعماله كما سبق القول . والثاني يرأس هيئة جماعية هي مجلس الوزراء .. الذي يكون مسئولا عن وضع السياسة العامة للحكومة ، ويسأل أعضاؤها جميعا بالتضامن عن تلك السياسة العامة .

والنظام البرلماني لا يفصل تماما بين السلطات كما يحدث في النظام الرئاسي .

والنظام البرلماني نشأ أصلا في إنجلترا . ويسميه الإنجليز «حكومة الوزارة» نظرا لأهمية الدور الذي تلعبه الوزارة في هذا النظام .

وقد عرفت إنجلترا هذا النظام في القرن التاسع عشر لأول مرة . ومن يومها وهذا النظام ينتشر في العالم ويتطور . إلا أنه عاد مرة أخرى وتعرض لموجة انحسار جديدة . وفي

الدول التي تطبق النظام البرلماني في الوقت الحاضر .. فإن الشكل الذي يطبق به ليس هو الشكل التقليدي الذي نشأ في الأصل .



ونعود إلى مصر .

لقد عرفنا خصائص كل من النظامين .. الرئاسي والبرلماني . والسؤال هو : أى هذين النظامين أخذت به الدساتير المصرية ؟
أن الإجابة على هذا السؤال تستدعي الرجوع إلى الدساتير التي صدرت بمصر ، وظروف إصدارها .

ففي سنة ١٨٣٧ أصدر محمد علي قانونا أساسيا يعرف بقانون «السياسة» .. نظم بمقتضاه أمور الحكومة في مصر ، ووضعها في سبعة دواوين تمثل السلطة التنفيذية .. وبجانبيها عدة مجالس .

إلا أن هذه المجالس لم تكن سوى مجالس استشارية لرغبات الوالي .. مثلما أصبحت الدواوين جهات تنفيذية لرغبات الوالي .
وقد استمرت الصفة الفردية المطلقة تطبع نظام الحكم في مصر بعد وفاة محمد علي .. فاستمرت في عهود ابراهيم وعباس وسعيد .. إلى أن جاء عهد الخديو إسماعيل .



ففي ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٦٦ أصدر الخديو إسماعيل لائحة بإنشاء مجلس شورى النواب .. وهو أول مجلس نيابي يتكون في مصر . ولائحة إنشائه تتكون من ١٨ مادة ، بالإضافة إلى لائحة أخرى من ٦١ مادة تعرف باسم «اللائحة النظامية» .. وهي بمثابة لائحة داخلية للمجلس .

ولم يتمتع مجلس شورى النواب بأية سلطات . فالبند الأول من اللائحة الأساسية ينص على أن «تأسس هذا المجلس مبني على المداولة في المنافع الداخلية والتصورات التي تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس ، ليصير المذاكرة وإعطاء الرأي عنها وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية» .

ويرى فقهاء القانون الدستوري أن مجلس شورى النواب لا يمكن اعتباره مجلسا نيابيا بالمعنى القانوني السليم .. سواء كان ذلك من ناحية ممارسة حق الانتخاب الذي قصر فقط

على مشايخ البلاد فى الأقاليم وعلى وجوه وأعيان مدن القاهرة والإسكندرية ودمياط دون بقية أفراد الشعب .. أو من ناحية اختصاصه .. إذ كان مجرد مجلس استشارى لا يتمتع بسلطات فعلية أصلية .

وقد أصدر اسماعيل أيضا أمرا كتابيا فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ بإنشاء مجلس النظار . و صدر الأمر إلى نوبار باشا لتكليفه بتأليف هذه الوزارة .. التى يشير إليها غالبية الفقه المصرى باعتبارها أساس نشأة نظام الوزارة المسئولة فى مصر .

وسرعان ما أدت الأزمة المالية بمصر والتدخل الأجنبى فى شئونها إلى تدهور الأوضاع .. فبدأ مجلس شورى النواب ينادى بضرورة محاسبة الوزارة عن تصرفاتها . ولذلك استصدر الخديو مرسوما بفض المجلس . وكان الأعضاء يتحسبون لذلك .. فقرروا عدم الإذعان لرغبة الخديو .. وأعدوا عريضة للخديو فى ٣ ابريل سنة ١٨٧٩ عرفت باسم «اللائحة الوطنية» . لقد طالب النواب فى العريضة بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتحويله إلى مجلس نيابى حقيقى تكون الوزارة مسئولة أمامه .

ونتيجة لذلك قام شريف باشا بتأليف وزارة وطنية استبعد منها الوزيرين الأجنبيين المفروضين على مصر . وتقدم فى ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ بمشروع لدستور جديد مبنى على الأسس الديمقراطية الصحيحة .

ولم يصدر هذا الدستور لأن قرار عزل الخديو صدر من السلطان التركى (حيث كانت مصر ما تزال ولاية تابعة له) فى ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ .. وتولى الحكم من بعده ابنه توفيق . ولكن من المفيد أن نعلم - من زاوية اهتمامنا هنا - أن مشروع دستور سنة ١٨٧٩ قد أخذ بالنظام النيابى كاملا .. فهو ينص على وجود برلمان منتخب شعبيا .. وعلى أن عضو البرلمان يمثل الأمة كلها .. وعلى استقلال أعضاء البرلمان عن الناخبين .. وعلى مدة محددة للعضوية .. واختصاصات محددة للاشتراك مع الحكومة فى السلطة . لقد أعطى لمجلس النواب سلطة إقرار القوانين قبل التصديق عليها من الخديو . ونص على مسئولية «مجلس النظار» أمام مجلس النواب . بل ونصت المادة ٤٣ منه على أن «النظار ملزمون بالمجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب» .

كذلك نص مشروع الدستور هذا فى المادة ١١ على أنه : «إذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الأسباب ولم تستعف

النظارة .. فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد انتخاب أعضائه ، على شرط ألا تتجاوز مدة الإنتخاب أربعة أشهر من يوم انفضاضه إلى يوم اجتماعه...» . ولم يصدر هذا الدستور بسبب تعيين خديو جديد لمصر هو توفيق . وعلى هذا فإن الحكم في مصر استمر حتى تلك الفترة حكما فرديا مطلقا مكبلا بالتدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية لمصر .

ولكن حدث في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ أن رفع الثوار برئاسة زعيم الثورة أحمد عرابي مطالبهم إلى الخديو توفيق . وتحت ضغط الثورة اضطر توفيق بعد ماطلات عديدة إلى أن يصدر دستورا في ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ .

كان هذا الدستور يعبر عن إرادة الشعب كما ظهرت في مشروع دستور سنة ١٨٧٩ . والإسم التاريخي لهذا الدستور هو «اللائحة الأساسية» . ولكنه برغم ذلك يعتبر من الوجهة القانونية دستورا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة . وهو يعتبر أول دستور في مصر يقيم نظاما ديموقراطيا صحيحا .

وقد أخذ هذا الدستور بالنظام النيابي (البرلماني) . فهو يقرر وجود مجلس نواب منتخب من الشعب . وكل نائب يعتبر «وكيلا عن عموم أهالي القطر المصرى لا عن الجهة التى انتخبته فقط» . ومدة العضوية خمس سنوات .. وللنواب «مطلق الحرية فى إجراء وظائفهم ، وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ، ولا بوعده أو وعيد يحصل إليهم» . والدستور يشترط موافقة المجلس على مشروعات القوانين قبل التصديق عليها من الخديو . وله حق إقرار الميزانية . ولا يجوز فرض ضرائب أو رسوم أو عوائد إلا بمقتضى قانون يقره المجلس .

وأخذ الدستور أيضا بمبدأ المسئولية التضامنية للوزارة . ف : «النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه إخلال بالقوانين واللوائح المرعية الإجراء» . و : «كل من النظار مسئول .. عن إجراءاته المتعلقة بوظيفته» . أما الخديو فهو لا يتمتع بسلطة فعلية .. ولذلك فهو غير مسئول أمام مجلس النواب .



فهذا الدستور قد قرر إذن الأخذ بالنظام البرلماني . هذا النظام الذى يقوم على أساس عدم مسئولية رئيس الدولة ، ووجود مجلس للوزراء تتقرر مسئوليته التضامنية والمسئولية

الفردية لكل وزير منه . وأخيرا على حق الخديو فى حل المجلس النيابى كسلاح مضاد للمسئولية الوزارية .

ولكن الحياة البرلمانية فى ظل هذا الدستور لم تستمر إلا عدة أشهر قليلة . فقد رأت انجلترا وفرنسا أن البلاد قد سادها حكم دستورى يقوم على نظام نيابى برلمانى صحيح . وهكذا أرسلتا إلى خديو مصر بمذكرة مشتركة تحتمان فيها إسقاط الوزارة .

وبالفعل قدم رئيس الوزارة (محمود سامى البارودى) استقالة الوزارة إلى الخديو .. محملا إياه تبعه تدخل الدولتين الأجنبية فى شئون البلاد . وتطور الموقف سريعا بتحالف الخديو مع الإنجليز .. الذين سارعوا باحتلال مصر .

وهكذا انحصرت فترة العمل بالدستور ما بين ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ و١٤ سبتمبر من السنة نفسها - تاريخ احتلال الإنجليز للقاهرة .

وسرعان ما قام الإنجليز بإلغاء دستور ١٨٨٢ . وصدر بدلا منه «القانون النظامى» فى أول مايو سنة ١٨٨٣ فأعاد الحكم المطلق مرة أخرى .. وأعطى السلطة فى هذه المرة للمحتل الإنجليزى . وكان «القانون النظامى» يقيم حكما رجعيا مطلقا ويعطى الطابع الاستشارى البحت لعدة مجالس صورية .. بعيدة تماما عن النظام النيابى الصحيح .



ولكن الوعى الوطنى فى مصر هب ثانية بزعامه مصطفى كامل . وتحت ضغط تلك الحركة الوطنية وسعيها لتهدئتها تقرر العدول عن «القانون النظامى» لسنة ١٨٨٣ وإلغاء نظام مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . وحل محلها نظام الجمعية التشريعية بمقتضى القانون النظامى رقم ٢٩ لسنة ١٩١٣ .

وقد نص ذلك النظام على إنشاء جمعية تشريعية فى البلاد تتكون من عدد من الأعضاء ، جزء منهم بالتعيين وجزء آخر بالانتخاب . مدة العضوية للجميع ست سنوات . ويجوز حل الجمعية التشريعية . واختصاصاتها كلها استشارية غير ملزمة إلا بالنسبة لفرض الضرائب والرسوم . ويحظر على الجمعية - بحكم القانون - أن تنظر أو تبدى الرأى فى مسائل معينة .. منها العلاقات الدولية بين مصر والدول الأجنبية .. ومخصصات الخديو . ولأعضائها حق توجيه أى سؤال للوزراء . ولكن الوزراء أحرار فى الإجابة أو عدم الإجابة .

فقانون سنة ١٩١٣ هو قاعدة للحكم المطلق بوضوح . وعموما فقد مارست تلك الجمعية التشريعية عملها خمسة أشهر فقط . بعدها قامت الحرب العالمية الأولى . ثم فرضت بريطانيا حمايتها على مصر . وأصبح حسين كامل سلطانا للبلاد ، فأجل انعقاد الجمعية لأجل غير مسمى .



ونقفز الآن مباشرة إلى سنة ١٩٢٣ .. فهى السنة التى صدر فيها الأمر الملكى رقم ٤٢ من الملك فؤاد بإصدار الدستور .

ونحن لا نناقش هنا الظروف التى صدر فيها دستور سنة ١٩٢٣ . هذا موضوع آخر . فالمهم إذن أن دستور سنة ١٩٢٣ يضم ١٧٠ مادة . وقد أخذ بالنظام البرلمانى كشكل للحكم فى مصر . وقرر أن السلطة التشريعية تكون فى يد برلمان مكون من مجلسين ، هما مجلس النواب ومجلس الشيوخ . وقرر مسئولية الوزراء أمام مجلس النواب (مادة ٦١) .. وأعطى للملك فى مقابل ذلك الحق فى حل مجلس النواب (المادتان ٨٨ و ٨٩) .. والحق فى اقتراح القوانين . والملك هو الذى يصدق على القوانين التى يوافق عليها البرلمان .

فدستور سنة ١٩٢٣ أخذ بكل أركان النظام البرلمانى : فرئيس الدولة (الملك) غير مسئول سياسيا . إنه يسود ولا يحكم . وهناك مجلس للوزراء متضامن فى المسئولية . والوزارة مسئولة سياسيا أمام البرلمان . وللملك حق وسلطة حل البرلمان .

ونلاحظ هنا أن البرلمان فى مصر فى ظل دستور سنة ١٩٢٣ كثيرا ما كان يعجز عن القيام بدور فعال . فقد وافق البرلمان على قوانين منافية لبادئ الحرية كانت قد صدرت قبل وضع دستور سنة ١٩٢٣ ولكنها مع ذلك ظلت نافذة بعده ولم يقم البرلمان بإلغائها . وفى ظل دستور سنة ١٩٢٣ أيضا شهدنا برلمانا فى مصر يقول رئيسه للأعضاء : «هل تريدون أن تسمعوا هذا المعارض ؟» .. ثم يمنعه من الكلام .

كان هذا يحدث فى ظل الدستور . مع أن جوهر الديمقراطية فى رأى الفقهاء الدستوريين هو : «.. إنها تضمن حرية النقد وتتيح فرصة المقاومة التى يبديها الفكر الحر لكل قاعدة أو نظام قبل الخضوع لهما» .

وعموما ، فقد ألغى دستور سنة ١٩٢٣ .. وصدر دستور آخر فى مصر فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٣٠ . وقد أخذ الدستور الجديد مثل سابقه بالنظام البرلمانى ، مع توسيع سلطات

الملك على حساب البرلمان . ثم ألغى هذا الدستور فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ وأعيد العمل بدستور سنة ١٩٢٣ .

وظل دستور ١٩٢٣ قائما فى التطبيق إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فأعلنت إلغاءه فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وبدأت اجراءات وضع دستور جديد .. تم إعلانه فعلا فى ١٦ يناير سنة ١٩٥٦ .



ويصدر دستور سنة ١٩٥٦ بدأت مرحلة جديدة فى الحياة البرلمانية فى مصر . فقد عكس هذا الدستور التطورات الجذرية التى شهدتها الحياة السياسية فى مصر من ناحية .. وعلاقة الحاكم بالشعب من ناحية أخرى .

فدستور ١٩٥٦ لم يكن منحة من الحاكم إلى الشعب كما كان دستورى ١٩٢٣ و١٩٣٠ . أن مقدمته تبدأ بـ «نحن الشعب المصرى» بدلا من «نحن ملك مصر» . وهو من ناحية أخرى أول دستور يصدر فى مصر فى ظل النظام الجمهورى الذى أعلنته الثورة . وقد تميز دستور ١٩٥٦ بنواح كثيرة يختلف فيها جذريا عن الدساتير التى سبق العمل بها فى مصر .

ولكن السؤال الذى نناقشه هنا هو : هل أخذ دستور ١٩٥٦ بالنظام البرلمانى ، أم بالنظام الرئاسى ؟

الحقيقة أن دستور سنة ١٩٥٦ أخذ بجانب من مظاهر النظام البرلمانى ، وجانب من مظاهر النظام الرئاسى . فمن النظام البرلمانى قرر الدستور حق أعضاء مجلس الأمة (البرلمان) فى توجيه أسئلة واستجابات للوزراء . وقررت المادة ١١٣ من الدستور المسئولية الفردية للوزراء أمام مجلس الأمة . ومقابل ذلك فالسلطة التنفيذية (رئيس الجمهورية) هى التى تدعو البرلمان إلى الانعقاد وتفرض دورة انعقاده . ولرئيس الجمهورية حق اقتراح القوانين والاعتراض عليها وإصدارها .. وله حق حل مجلس الأمة .

أما بالنسبة لمظاهر النظام الرئاسى فقد قرر دستور ١٩٥٦ أن يجمع بين صفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة فى شخص واحد هو رئيس الجمهورية . والتعبير القانونى لفقهاء القانون الدستورى هو : أن دستور ١٩٥٦ أخذ بنظام برلمانى ناقص .. وأخذ بأحد مظاهر النظام الرئاسى الذى يجمع بين صفتى رئيس الدولة ورئيس الحكومة فى شخص واحد .

وانتقلت الحياة النيابية بعد ذلك إلى مرحلة جديدة بصدر دستور جديد ، هو الدستور المؤقت الذى أعلن فى الخامس من مارس سنة ١٩٥٨ عقب قيام الوحدة بين مصر وسوريا . ومن وجهة اهتمامنا هنا فإن دستور ١٩٥٨ أخذ بالنظام الرئاسى المطعم ببعض مظاهر النظام البرلمانى مثلما حدث فى دستور ١٩٥٦ . وقد حدث نفس الشيء تقريبا فى الدستور التالى ، وهو الدستور المؤقت الصادر فى سنة ١٩٦٤ .



.. ثم ماذا ؟

أن كل النظم السياسية - بما فيها النظامان الرئاسى والبرلمانى - تصب فى النهاية فى مجرى واحد هو : تحقيق درجة أكبر من الديمقراطية .

إن كلمة الديمقراطية فى العصر الحديث قد اكتسبت معانى جديدة لم يعرفها الإنسان فى الأزمنة القديمة . فمثلا ، كان معنى الحرية فى الأزمنة القديمة يقتصر فقط على الحرية السياسية . فعلى الرغم من أن المدن اليونانية القديمة قبل الفى سنة قد عاشت فى ظل نظام ديموقراطى مباشر .. إلا أنها لم تعرف الصورة المعاصرة للحرية . كان يصح مثلا نفى أى فرد بدون محاكمة .. بل ودون أن يتهم أصلا بارتكاب جريمة محددة . وكثير من حكومات المدن اليونانية القديمة كانت تحرم على الإنسان أن يبقى أعزب . وكان القانون فى اسبارطة مثلا يقرر للنساء نظام تسريحة الشعر .

وفى إحدى المواقع الحربية هزمت اسبارطة . فقررت الحكومة أنه يجب على أهالى الموتى أن يظهرُوا بوجوه ضاحكة مستبشرة .. وأن الأم التى ينجو ابنها من الموت .. عليها أن تلاقيه باكية !

إلى تلك الدرجة إذن كانت الحريات الشخصية ضيقة .. أو مختفية !

ولكن العصر الحديث يشهد توسيعا مستمرا لمفهوم الحرية . والنظم السياسية الحديثة ما هى إلا وجهات نظر مختلفة لضمان الحرية . ومن بين هذه النظم طبعا النظامان البرلمانى والرئاسى .



والسؤال الآن من وجهة اهتمامنا هنا هو : أيهما أفضل من الآخر .. النظام الرئاسى .. أو النظام البرلمانى ؟

والسؤال بهذا الشكل مضلل .

فلا يوجد نظام أحسن أو أسوأ من الآخر . فأحيانا يكون النظام موجودا على الورق .. مختفيا من الواقع . إن التطبيق إذن هو المقياس الحقيقي لكفاءة كل من النظامين . والبرلمان فى الحالتين يستطيع أن يمارس دورا فعالا .. أو لا يمارسه .

فالحرية - كما يقول مونتسكيو - لن تكون فى أمان من الاعتداء عليها إذا كانت هيئة من الهيئات تجمع فى قبضة يدها سلطة كبيرة ، حيث تستطيع أن تفرض إرادتها دون أن تجد أمامها هيئة أخرى تمنعها من الخطأ .

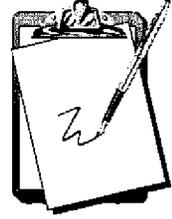
وكل نظام سياسى لابد أن يكون فيه - بشكل ما - فرامل .. تمنع هذا الخطأ .

ولهذا السبب فإن المؤرخين يعتبرون أن التطبيق العملى ، وليس مجرد نصوص الدستور ، هو المقياس .. ويعتبرون أن البرلمان هو .. دفتر يوميات يسجلون منه التاريخ الحقيقى لكل مجتمع .

و ...

أحيانا يكون دفتر اليوميات هذا مليئا بمساحات بيضاء كثيرة !

الأحزاب السياسية : ماذا .. وكيف ؟



هل الحزب هو مجرد «مجموعة من الناس يؤمنون بنفس النظرية السياسية» كما يقول علماء السياسة ؟

هل الحزب هو «مجموعة من الناس تحاول أن يفوز مرشحون عنها في الإنتخابات .. بهدف تولى المناصب العامة» كما تقول دوائر المعارف ؟

هل الحزب هو مجرد «الرأى المنظم» .. كما يقول خبراء الإعلام ؟
ثم : لماذا يوجد الحزب أصلا ؟

إن الأحزاب السياسية ظلت سيئة السمعة حتى وقت قريب ، وفي بلاد عريقة . فى القرن الثامن عشر مثلا ، كان الزعيم الأمريكى جورج واشنطن يحذر فى خطابه الوداعى من «التأثيرات الضارة للروح الحزبية بصفة عامة».

.. وحتى فى القرن العشرين ، مازال مألوفاً حتى الآن أن نسمع قطاعاً كبيراً من الناس ، وفى بلاد عديدة ، يتحدثون عن الأحزاب باحتقار شديد . فى ألمانيا الغربية مثلا . حيث لم يكن للأحزاب السياسية نفس الجذور العميقة والمحبة العاطفية التى لها فى الولايات المتحدة وبريطانيا ، ما زال كثيرون من الألمان يفخرون بأنهم «فوق الأحزاب» . نفس الشئ فى اليابان . حيث المواطن العادى ينظر إلى الزعامات الحزبية بكثير من الشك وقليل من الإطمئنان . وفى الهند (أيام نهرو) كانت هناك أصوات غاضبة ومرتفعة ترى أن الأحزاب لا ضرورة لها ولا جدوى منها .

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٧/١١/١٩٧٦ .

إذن .. لماذا الأحزاب ؟

إننا لو تركنا خصوم الأحزاب جانبا ، فسوف تكون الإجابة هي : إن الأحزاب هي وسيلة إلى الديمقراطية .

وما هي الديمقراطية ؟

إن أبسط تعريف للديموقراطية حتى الآن هو : إنها نظام يقوم فيه المحكومون باختيار من يحكمهم ، عن طريق الانتخابات الحرة والمفتوحة .

هنا بالضبط تبدأ ضرورة الأحزاب .

فمع اتجاه الحياة الحديثة إلى التعقد ، ومع اتجاه المجتمع الحديث إلى الضخامة ، أصبحت إمكانيات الفرد الواحد في مواجهة النظام السياسى الحاكم تضعف وتضعف . إن هذا الشخص الواحد أصبح يكتشف أنه لا يستطيع وحده أن يتحكم فى القرارات الكبرى التى تتخذها حكومته بعيدا عنه ، ولكنها يمكن أن تمس صميم حياته اليومية . إن الحكومة تقول دائما إنها تتصرف لمصلحته - فكل حكومة تقول ذلك - ولكن من أين للحكومة أن تعرف .. حقا وعدلا .. مصلحته ؟

من هنا ظهر الحزب ليمارس وظيفة محددة ، هى إعطاء رجل الشارع صوتا مؤثرا فى السياسات الكبرى لبلده . إن الفرد بمفرده لا يستطيع أن يؤثر . ولكنه لو تجمع مع مليون آخر ، مع مليونين آخرين ، واختاروا عنهم نوابا دائمين .. يعبرون عن مصالحهم خارج السلطة .. وينفذون مصالحهم فعلا داخل السلطة .. فإن الوظيفة تكون قد تمت .. والمهمة أنجزت .

أن الأحزاب بدأت إذن مع بداية عصر الجماهير الكبيرة فى السياسة . وإذا كان عمر الأحزاب السياسية - كمنظمات - يقترب الآن من قرنين من الزمان .. فإن الحزب السياسى ، بمفهومه الحديث ، يعتبر فى الواقع : اختراع القرن العشرين .

أن كل الدساتير تعطى للفرد العادى حقوقا سياسية معينة . ولكن وجود هذه الحقوق شىء .. وممارستها شىء آخر مختلف . فى فرنسا مثلا ، يستطيع كل شخص - نظريا - أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية . ولكنه عمليا - لا يستطيع ذلك ، إلا إذا كان يسانده حزب .. أو مجموعة أحزاب . فى بريطانيا .. يستطيع كل شخص أن يرشح نفسه نائبا فى مجلس العموم (بعد أن يدفع قيمة التأمين) . ولكن فى التطبيق ، لا أحد يملك فرصة النجاح غالبا بغير وجود حزب سياسى قوى يؤيده ويدعمه .

أن الحزب السياسى هو إذن منظمة يجمعها مبدأ محدد .. أو نظرية محددة .. تستهدف الوصول إلى السلطة بطريق الإنتخاب ، وتسعى للتعبير عن الرأى العام كوسيلة للنجاح فى هذا الإنتخاب .

إن الرأى العام - قبل وجود الحزب السياسى - هو مجرد رأى خام .. ثم يأتى الحزب السياسى لكى يصنع منه رأيا «معجوناً» أو مشكلا حسب نظرية الحزب .

ولكن الأحزاب فى المفهوم الحديث لا تكتفى بمجرد التعبير عن الرأى العام . إنها فى الواقع تبلوره وتشكله بأكثر مما تشوّهه . وهى تمارس معه حوارا أكثر مما تردده كصدى . فبغير الأحزاب هناك فى الرأى العام اتجاهات غامضة وغريزية ومتنوعة .. تعتمد على شخصية كل فرد وتعليمه وعاداته ومركزه الاجتماعى وتطلعاته وطموحاته ومصالحه الاقتصادية .. إلخ .

والأحزاب السياسية لا تمارس هذه الوظيفة بالضرورة فى كل البلاد وفى ظل جميع الظروف . فمن المعروف مثلا أن البلاد التى لا توجد فيها للتقاليد الديمقراطية أقدمية زمنية كافية .. وليس للأحزاب السياسية فيها جذور قوية .. فإن نتائج الإنتخابات لا تأتى دائما معبرة بصورة دقيقة عن اتجاهات الرأى العام .. كما أن كل انتخاب يمكن أن تأتى نتائجه مختلفة تماما - بل وربما مفاجئة - عن الإنتخاب السابق .

وحتى فى البلاد العريقة فى الديمقراطية ، هناك فرق بين تأييد الرأى العام للحزب كبرنامج ، وتأييده له كقيادات . إن الرأى العام يتم استخراجه أساسا من مجموع الآراء الخاصة للأفراد . ومن أجل هذا يقوم الحزب السياسى بدخول الانتخابات العامة على أساس برنامج انتخابى معلن . فى هذا البرنامج الانتخابى يكون هدف الحزب هو جذب أكبر عدد ممكن من الأصوات الانتخابية عن طريق اقتراح أهداف محددة يخاطب فيها مصالح أكبر عدد من الأفراد . إن وقوف الأفراد إلى جانب هذه الأهداف ليس معناه بالضرورة وقوفهم مع الحزب نفسه ككل ، والعكس بالعكس .

وقد حدث فى فرنسا مثلا فى سنة ١٩٥٦ أن أعطى أكثر من ٢٥٪ من الناخبين الفرنسيين أصواتهم إلى مرشحى الحزب الشيوعى الفرنسى .. بينما كان العدد الأكبر من هؤلاء يقف ضد الشيوعية كإيديولوجية وضد الحزب الشيوعى نفسه كبرنامج شامل . ولكن

الذي حدث هو أن الجزء الأكبر من هؤلاء الناخبين كان يتفق مع الحزب في قضية محددة ضمن برنامجه .

إن هذه الظاهرة ، وكثير غيرها ، هي دائما السبب في أن بعض الخبراء يعتبر أن الأحزاب السياسية لا تعطى دائما أصدق تعبير عن الرأي العام . حسنا . ربما يكون هذا صحيحا . . ولكن حتى الآن لم تبتدع الديمقراطية شيئا أفضل . فالرأي العام ، بغير منظمات كبرى تنبع منه متعبير عنه ، يظل شيئا متغيرا وغامضا ومتذبذبا وغير مستقر . إن الأحزاب السياسية هي إذن إحدى الوسائل التي تلم شمل الأفراد المبعثرين والمتناثرين . تحت برنامج واحد . . وفي تنظيم محدد . . وداخل حزب واحد ، يتنافس بدوره عن طريق الانتخابات الحرة والمفتوحة مع الأحزاب الأخرى .



لماذا إذن يختلف النظام الحزبي من دولة إلى أخرى ؟ لماذا تأخذ بعض البلاد بنظام الحزب الواحد . . وبعضها بنظام الحزبيين . . وبعضها بنظام تعدد الأحزاب ؟ بل ولماذا تقرر بعض البلاد أن ترفض نظام الأحزاب جملة وتفصيلا ؟

إن السؤال الأخير لا مكان لإجابته هنا من زاوية اهتمامنا الآن . ومن هنا سوف أقتصر هنا على النظام الحزبي نفسه . . ما الذي يجعله مكونا من حزب واحد . . أو من عشرين حزبا ؟ ثم . . كيف يؤثر عدد الأحزاب نفسه على صفات وملامح كل حزب ؟

من الناحية المبدئية هناك ظروف خاصة بكل بلد ، وكل حزب على حدة ، تتحكم في ظروف نشأته . والظروف الخاصة نجدها في التقاليد السائدة في المجتمع ، وتاريخه ، وبنائه الاجتماعي والاقتصادي ، ومعتقداته الدينية ، وخصوصياته القومية . . وهكذا . إن نشأة الحزبيين الجمهوري والديموقراطي في الولايات المتحدة مثلا . . والتنافس أو الخصومة بينهما . . نشأت من الخصومة بين جيفرسون وهاميلتون في السنوات المبكرة للاتحاد بين الولايات . التي كانت في الأصل دولا مستقلة .

وانشقاق الجناح اليميني في فرنسا ونشأة الحزب الراديكالي . يرجع إلى موقف سياسي خاص نشأ في فرنسا فيما بين سنتي ١٨٧٥ و ١٩٠٠ . وفي الدول الإسكندنافية تتميز الأحزاب الزراعية بعناد يرجع في أصله إلى منتصف القرن التاسع عشر ، حيث كانت

مصالح القرية تتعارض مع مصالح المدينة .. والفلاحون ضد النبلاء . في النمسا قبل الحرب العالمية الأولى ، وفي تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية ، كانت الأحزاب السياسية انعكاسا للخصومات بين القوميات المختلفة التي يضمها كل من البلدين .. إلخ .

أما العوامل التي تؤثر على النظام الحزبي فهي عوامل اجتماعية / اقتصادية .. وعوامل أيديولوجية .. وعوامل فنية .

● أن تأثير التركيب الطبقي لكل مجتمع يؤثر قطعاً على بنائه الحزبي . ففي أوروبا القرن التاسع عشر مثلاً كان الصراع أساساً بين الملاك الأرستقراطيين للأرض .. وبين طبقة التجار . لهذا كانت الأحزاب تتراوح بين المحافظين المعبرين عن الملاك .. والأحرار المعبرين عن التجار . وعندما ظهرت الأحزاب الاشتراكية في بداية القرن العشرين كان ظهورها مصاحباً لدخول طبقات العمال الصناعيين إلى الحياة السياسية .

● هناك أيضاً الإيديولوجيات السياسية للأحزاب . فكل أيديولوجية تخاطب مصالح قطاع من المجتمع تعبر عنه ، وتقوم بدور المغناطيس الذي يجذب هذا القطاع إلى الحزب . أن الاستثناء الوحيد لذلك هو الحزبان الجمهوري والديموقراطي في أمريكا . فبرامج هذين الحزبين لا تخاطب طبقات في المجتمع ، والتجانس الاجتماعي ليس موجوداً في أى منهما .

● أما العوامل الفنية فهي أساساً النظام الانتخابي المعمول به في المجتمع . فحيث يعتمد النجاح في الانتخابات على نظام التصويت من درجة واحدة والأغلبية البسيطة (كما في مصر) .. يؤدي هذا غالباً إلى تبلور النشاط السياسي حول حزبين كبيرين . وحينما يوجد نظام التمثيل النسبي ، حيث يحصل كل حزب على مقاعد في البرلمان تعادل نسبة الأصوات التي حصل عليها ، فإن هذا يشجع عملياً على تعدد الأحزاب .



تبقى بعد ذلك المقارنة بين النظم الثلاثة للأحزاب : نظام الحزب الواحد .. ونظام الحزبين .. ونظام تعدد الأحزاب .

ومن الناحية المبدئية هناك خطأ شائع بين كثيرين من علماء السياسة ، يعتمد على المقارنة بين نظام الحزب الواحد ونظام تعدد الأحزاب باعتبار أن العدد هنا هو معيار التمييز

بين الديكتاتورية والديموقراطية .. أو بين الشرق والغرب . هذا خطأ . فنظام الحزب الواحد كان معمولاً به في اسبانيا حتى وقت قصير مضى وفي كثير من دول أمريكا اللاتينية وإفريقيا وبعض الولايات الجنوبية من أمريكا . بينما نظام تعدد الأحزاب موجود حتى الآن - ١٩٧٦ - رسمياً في ألمانيا الشرقية وبعض دول الكتلة الشرقية عموماً . أن وجود حزب واحد ليس إذن قرينة نهائية على وجود ديكتاتورية سياسية .. كما أن وجود أحزاب عديدة ليس قرينة نهائية على وجود ديموقراطية . إن الذى يحسم الأمر إذن هو دراسة كل حالة على حدة .



أولاً : نظام الحزب الواحد .

بالرغم من أن الحكم الديكتاتورى قديم قدم البشرية ذاتها .. فإن الحكم الديكتاتورى الذى يعتمد في بقائه بالسلطة على حزب سياسى واحد - كما كان الحال في إيطاليا الفاشية وألمانيا النازية .. وكما هو الحال الآن في الاتحاد السوفيتى وبعض دول الكتلة الشرقية - هو نوع جديد من النظام السياسى .

واعتماد النظام السياسى على حزب واحد ، هو ظاهرة بدأ تطبيقها قبل أن توضع لها نظرية ، كما حدث في تركيا أيام كمال أتاتورك ، وفي البرتغال حتى فترة قريبة . وحتى في الاتحاد السوفيتى نفسه لم ينص الدستور على احتكار الحزب الشيوعى للسلطة إلا منذ سنة ١٩٣٦ .

وأناصر نظام الحزب الواحد يقولون : إن الجماهير لا تستطيع أن تحكم نفسها ، ولا بد من نخبة تحكم باسمها . ووجود حزب واحد يحقق مهمة مزدوجة . فهو يقيم صلة عضوية بين الجماهير وبين الحكومة . إنه يقضى على عزلة الحكومة عن شعبها عن طريق انتشار خلاياها في كل المدن والقرى . وعن طريق هذه الخلايا تستمع الحكومة إلى آراء الناس في قراراتها ، كما تستطيع أن تتصرف بناء على رغبات الجماهير نفسها . إن الحزب يجعل الحكومة إذن تستمع إلى رأى الجماهير .. ويمكن الجماهير من فهم قرارات الحكومة . وكفاءة الحزب تأتى من قيامه بهذه الوظيفة المزدوجة . فالأنة جزء من الدولة .. فهو قادر على فهم القرارات من الداخل . ولأنه مجموعة من المواطنين .. فإنه قادر على التعبير عن ردود فعل الجماهير إلى السلطة .

أما خصوم هذا النظام فإنهم يردون على مبدأ احتكار حزب واحد للنشاط السياسى . أن نظام الحزب الواحد فى نظريهم هو إحياء لفكرة «الحرس البريتورى» أيام الإمبراطورية الرومانية . لقد كان الإمبراطور المستبد يقيم هذا الحرس لحماية شخصيا وتدعيم قدرته على الاستبداد . وكما كان الإمبراطور الرومانى يحتفظ بولاء «الحرس البريتورى» له عن طريق الامتيازات المتواليه التى يعطيها له .. كذلك فإن الديكتاتور فى القرن العشرين يحتفظ بولاء الحزب السياسى له عن طريق الخدمات والمصالح المحددة التى يضمنها لأعضائه . هذه الخدمات تبدأ من احتكارهم للمناصب الإدارية وحصولهم على المزايا المادية وانفرادهم بالحرية والسلطة .. وانتهاء بمصالح اقتصادية واحتكارية .. إلخ .

إن الحزب السياسى الواحد يقوم هنا بدور الحاشية للديكتاتور .. وأعضاؤه مستمرون بقدر تجديد ولأنهم للديكتاتور وليس بقدر كفاءتهم أكثر من غيرهم .

أما عن قيام أعضاء الحزب السياسى الواحد بدور الموصل بين الجماهير والقادة ، فالواقع أن هذا الموصل يقوم بدوره فى اتجاه واحد فقط هو تبليغ تعليمات القيادة إلى الجماهير ، مما يؤدى بالضرورة إلى عزل أفراد الحزب عن الناس ويخبيء عنهم ردود الفعل الحقيقية للجماهير . إن الحقيقة لابد من إعادة تشكيلها عند كل مستوى من مستويات الحزب . فالعضو العادى يستطيع - لو تحرر من شعارات الحزب - أن يعرف الحقيقة . ولكنه بحكم فطنته وغريزته يخضع جزءا منها عند نقلها إلى القائد المحلى . ولنفس الأسباب يقوم القائد المحلى بخضع جزءا آخر من الحقيقة عند تبليغها لقائد الحى . ثم يقوم قائد الحى بخضع ثالث حينما ينسق مجموع التقارير ويرفعها إلى اللجنة القيادية الأعلى . وأخيرا تخضع اللجنة القيادية جزءا رابعا من الحقيقة عند نقلها إلى قائد الحزب ، الذى هو أيضا رئيس الدولة .. بحيث أن هذا الأخير يصبح فى النهاية معزولا عن الواقع بقدر عزلة لويس الرابع عشر عن الجماهير الفرنسية داخل قصر فرساي .. وزوجته تواجه مظاهرات الجائعين ولا يجدون رغيف الخبز بردها وتساؤلها المفحم : .. ولماذا لا يأكلون الجاتوه ؟!

ونجاح نظام الحزب الواحد فى القرن العشرين يرجع إلى الإمكانيات الفنية الهائلة التى وضعتها التكنولوجيا فى خدمته ، وفى مقدمتها وسائل الدعاية والإعلام . فمن خلال الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية ، ومن خلال التكرار نفسه ، يستطيع الديكتاتور أن ينشر أفكاره ، ويكررها ، بين الجماهير .

ولكن الإقناع وحده لا يكفي . ومن ثم فلا بد أن يصحبه كبت وقمع وتجسس . من هنا يتحول الحزب الواحد ، عاجلا أو آجلا ، إلى تنظيم بوليسى .. أو تصبح له مهمة بوليسية إلى جانب المهمة السياسية .

وأبرز نماذج نظام الحزب الواحد هي : الحزب الفاشى الإيطالى ، والحزب النازى الألماني ، والحزب الشيوعى السوفيتى . إن العقيدتين الفاشية والشيوعية تختلفان تماما من الناحية الفكرية ، وهذا يعكس بدوره اختلافًا فى طبيعة وبناء الحزب السياسى الواحد فى كلا النظامين .

فالحزب الفاشى يعتمد فى نشأته على الميليشيات المسلحة . ولكن الحزب الشيوعى يعتمد على الخلايا التنظيمية . والأول تكون العضوية فيه مغلقة بعد الوصول إلى السلطة .. ولكنها فى الثانى تكون مفتوحة بقيود . والحزب الفاشى (بعد النص) يخضع لسلطة الدولة . ولكن الحزب الشيوعى يسيطر على سلطة الدولة . والأول دوره فى إعادة بناء المجتمع محدود .. ولكن الثانى دوره شامل .

ورغم أن كثيرين من علماء السياسة يعتبرون أن الأحزاب الفاشية والأحزاب الشيوعية تمثل النموذجين الوحيديين لنظام الحزب السياسى الواحد .. إلا أن هناك فى الواقع نماذج أخرى لا يشترط أن تمثل تطرف اليمين (كما فى الفاشية) أو تطرف اليسار (كما فى الشيوعية) .

من تلك النماذج مثلا نظام الحزب الواحد الذى أقامه كمال أتاتورك فى تركيا . ففي الفترة بين سنة ١٩٢٣ وسنة ١٩٤٦ كان حزب الشعب الجمهورى هو وحده الذى يحتكر عمليا كل النشاط السياسى فى تركيا ، بالرغم من أن هذا الاحتكار لم يتم الاعتراف به رسميا .. بل كان هناك شبه خجل منه واعتذار عنه .

ويرجع الاعتذار إلى أن ثورة كمال أتاتورك لم تكن ايدولوجية - كما فى الفاشية أو الشيوعية - ولكنها كانت ثورة عملية . ومهمتها كانت تحويل تركيا إلى مجتمع غربى . والحزب نفسه لم يعتمد فى تشكيلاته على الخلايا أو الميليشيات . ورغم أن نظام أتاتورك لم يكن فاشيا ، إلا أنه أيضا لم يكن ديموقراطيا . ففي التطبيق كانت الانتخابات هى مجرد استفتاءات تقتصر على مرشح واحد ، والحريات السياسية ظلت مقيدة .

إن نفس الظاهرة يمكن تسجيلها عن النظام السياسى فى البرتغال حتى فترة قريبة مضت .. حيث كان يوجد حزب واحد ، هو الاتحاد القومى ، يشترك فى ملامح كثيرة مع حزب الشعب الجمهورى فى تركيا .

وبصفة عامة فإن طبيعة الحزب السياسى الواحد تتوقف على نشأته . فإذا نشأ نظام الحزب الواحد أصلا فى ظل نظام ديموقراطى يقوم على تعدد الأحزاب (كما حدث فى ايطاليا وألمانيا) فإنه فى الواقع يلغى الديموقراطية تماما منذ لحظة وصوله إلى السلطة . أما إذا نشأ الحزب الواحد فى بلد يخضع لحكم استبدادى أو بلا أحزاب (كما حدث فى تركيا والاتحاد السوفيتى) فإنه يمثل خطوة إلى الأمام فى طريق تطوير المجتمع ، وتخليصه من المظالم السابقة ، ومن ثم أكثر ديموقراطية .



ثانيا : نظام الحزبين .

برغم أن بريطانيا تضم ثلاثة أحزاب . هى المحافظون والعمال والأحرار ، إلا أنها من الناحية العملية تعتبر فى الواقع من البلاد التى يعتمد فيها النظام السياسى على حزبين كبيرين . لقد كان الصراع أساسا بين المحافظين والأحرار .. إلى أن شهد مطلع القرن العشرين ميلاد الأحزاب الاشتراكية نتيجة لتضخم أعداد العمال الصناعيين ودخولهم إلى الحياة السياسية . إن تلك الظاهرة جاءت بحزب العمال لكى يأخذ مكان الحزب الثانى بدلا من حزب الأحرار ، الذى تراجع إلى أسفل ، وأصبح زواله من الحياة السياسية مجرد مسألة زمنية .

ومن البلاد التى تأخذ بهذا النظام أيضا الولايات المتحدة . وهى من بين البلاد القليلة فى العالم التى لم يتعرض فيها هذا النظام لأى تحد جاد أو خطير . فرغم محاولات متكررة لخلق «حزب ثالث» .. إلا أنها جميعا فشلت أو تمخضت فقط عن أحزاب أقليات محلية فانية وسريعة الزوال .

وفى أمريكا اللاتينية يسير الاتجاه العام نحو نظام الحزبين ، بالرغم من أن الانقلابات العسكرية والثورات المتقطعة تعترض هذا التطور وتعيد تشكيله من وقت لآخر . أما فى تركيا فقد كان هناك حزب واحد حتى سنة ١٩٤٦ حينما ولد الحزب الديموقراطى .. الذى حصل على مقاعد قليلة جدا فى أول انتخابات نتيجة لضغوط الحكومة . ولكنه فى

الانتخابات التالية (سنة ١٩٥٠) حقق نصرا كبيرا حينما حصل على ٥٥% من الأصوات و٤٠٨ مقاعد مقابل ٣٩ مقعدا فقط لحزب الشعب الجمهورى ، ومقعد واحد للحزب الوطنى الذى نشأ اصلا كانشقاق عن الحزب الديموقراطى ، ولكنه سرعان ما اختفى .. فأصبحت تركيا بذلك تنتمى الآن إلى الدول التى تأخذ بنظام الحزبين .

وبلاحظ فى هذا التوزيع الجغرافى لنظام الحزبين أنه أصبح منحسرا فى بلاد كثيرة . وهذا يرجع إلى بداية القرن العشرين نتيجة لقيام الأحزاب الاشتراكية . ولكن برغم خسوف هذا النظام فى بعض البلاد ، مثل بلجيكا ، إلا أنه عاد إلى الظهور فى البلاد التى كانت تأخذ به أصلا .

وبصفة عامة فإن البلاد التى يوجد بها حزبان ، ثم يظهر حزب ثالث ، فإن واحدا من الأحزاب الثلاثة لابد أن يزول غالبا .. إما بالاندماج ، أو بالاستئصال . أن الاستئصال هو حكم من الواقع ، وله تفسيران : تفسير ميكانيكى .. وتفسير نفسى .

أما التفسير الأول فهو أن نظام نجاح النائب بالأغلبية البسيطة (كما فى مصر) يعطى للحزب الأضعف دائما تمثيلا نيابيا أقل مما يحصل عليه من أصوات ، بحيث أن عدد مقاعده فى البرلمان يظل دائما غير ملائم للنسبة التى حصل عليها من أصوات الناخبين . وأما التفسير النفسى فيرجع إلى أن الناخبين سرعان ما يدركون أن أصواتهم تضيع هباء ، ومن ثم فأنهم ينقلونها إلى الحزب الأقل سوءا من وجهة نظرهم فى الحزبين الباقين .. وبالتالي نصل إلى نفس النتيجة ، وهى أن الواقع يحكم غالبا باستئصال الحزب الأضعف بحيث نعود فى النهاية إلى نظام الحزبين .

ويبدو أن هذه النتيجة هى نتيجة لا مفر منها لنظام التصويت ذى الدرجة الواحدة الذى يعتمد على النجاح بأغلبية بسيطة . ففى ظل هذا النظام لا أمل لظهور حزب ثالث إلا إذا حصل على مساندة قوية محليا .. أو اعتمد على تنظيم قوى و متماسك قوميا . فى الحالة الأولى سوف يتقدم الحزب إلى الأمام ببطء وبألم ومشقة . فى الحالة الثانية يمكن فعلا أن يأمل فى تحقيق نمو ثابت ودائم يرفعه إلى مستوى الحزب الثانى .. ولحظتها ، وبألم ، تختار قوانين الاستئصال ضحية أخرى لها من الحزبين الأخرين !



ثالثا : نظام تعدد الأحزاب .

فى نقطة من النقط يمكن أن يتساوى تعدد الأحزاب مع عدم وجود أحزاب على الإطلاق ، وهذه ظاهرة غريبة - ولكن مألوفا - كما يعرفها علماء السياسة . فحينما يصل التعدد الحزبى فى بلد إلى الدرجة التى يصبح فيها الرأى العام منقسما بين مجموعات عديدة غير مستقرة .. وسائله .. وقصيرة العمر .. فإنه بذلك لا يقدم نموذجا للتعدد الحزبى بشكل صحيح . إنه ما زال فى الواقع يعيش تاريخيا فى عصر ما قبل الأحزاب ، لأن الأحزاب فى هذه الحالة لا تصبح قوية ولا معبرة بما يكفى لتكوين حياة سياسية مستقرة .

لقد عاشت فى تلك المرحلة كثير من دول أوروبا الغربية فى الفترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .. وتعيش فيها الآن بعض دول افريقيا وأمريكا اللاتينية ، كما كانت تعيش فيها أيضا كل الدول الغربية الكبرى فى القرن التاسع عشر .

والوصول إلى تحليل عام لظاهرة تعدد الأحزاب هو أمر صعب ، لأن التعدد هنا يبدأ من ثلاثة أحزاب ويستمر إلى ما لا نهاية . وفى داخل كل حالة هناك أشكال وظلال عديدة . فنظام الأحزاب الثلاثة التى تشكلت فى فرنسا بعد تحريرها من الاحتلال النازى فى الحرب العالمية الثانية لا يشبه الأحزاب الثلاثة التقليدية فى بلجيكا . ونظام الأحزاب الأربعة فى الدول الإسكندنافية يختلف عنه فى سويسرا .

مع ذلك فإن التحليل العام يصبح ممكنا لو اعتبرنا أن ظاهرة الحزبين هى الأساس فى التفكير السياسى . فالواقع العملى يبين أن هناك دائما اتجاهين أساسيين فى السياسة : يمين ويسار .. أو معتدلون ومتطرفون .. أو مصلحون وثوريون .. أو شباب وشيوخ .. أو مسالمون ومحاربون .. أو مرنون ومتشددون .. أو أصحاب مصلحة فى استمرار الأمر الواقع وأصحاب مصلحة مضادة فى تغيير الأمر الواقع .

إن كل حزب سوف يكون فيه دائما المعتدلون والمتطرفون ، والاتزان مكملان لبعضهما غالبا . ولكن التعدد يبدأ حينما يفقد الطرفان الأرضية المشتركة التى يلتقيان عليها . إن هذا هو ما حدث فى سويسرا مثلا حينما حدث انشقاق بين الراديكاليين والأحرار فى سنة ١٨٤٨ فأصبح هناك ثلاثة أحزاب ، سرعان ما تحولت إلى أربعة بظهور الاشتراكيين . نفس الشيء حدث فى فرنسا . فلقد أدى تشكيل الحزب الراديكالى إلى انشقاق فى صفوف الجمهوريين بحيث أنه فى نهاية القرن التاسع عشر أصبح هناك ثلاثة أحزاب .

والحالة الثانية التي يقع فيها التعدد الحزبى .. هي حالة التداخل بين القضايا الكبرى . فلو كان كل الفرنسيين مثلا متفقين على أن العداء بين الشرق والغرب له الأولوية على كل شيء ، يصبح أمامنا حزبان فقط .. حزب شيوعى وآخر معادى للشيوعية . وإذا اتفق كل الفرنسيين على أن الصراع الأساسى هو بين الاقتصاد الحر والاقتصاد المخطط .. إذن نصبح أيضا أمام حزبين : محافظين واشتراكيين .. وهكذا .

إن التعدد الحزبى هنا يأتى من التداخل بين القضايا الكبرى بحيث أن القضية الأولى عند كل قطاع من الرأى العام تختلف وتتقاطع مع القضية الأولى عند قطاع آخر .

أما الحالة الثالثة التي تؤدي إلى التعدد فهي حالة الدخول فى ظاهرة جديدة قبل موت ظاهرة قديمة . إن ظهور الأحزاب الاشتراكية أدى إلى ظهور حزب ثالث فى إنجلترا وبلجيكا والسويد وأستراليا ونيوزيلندا .. إلخ ، بينما لم يحسم قطاع من الرأى العام بعد ولائه لحزب قديم يعبر عن مصالح اجتماعية انتهت مع القرن التاسع عشر .

وأحيانا يكون الأساس فى التعدد الحزبى هو تعدد الأجناس داخل الدولة الواحدة . ففي الإمبراطورية النمساوية مثلا قبل الحرب العالمية الأولى كان هناك ٢٥ حزبا ، وفى تشيكوسلوفاكيا قبل الحرب العالمية الثانية وصل العدد إلى ١٤ حزبا ، وفى أسبانيا سنة ١٩٣٦ وصل العدد إلى ٣٦ حزبا .



وأخيرا فإن سيكولوجية بعض الشعوب قد تكون عاملا هاما فى التعدد الحزبى . فالشعوب اللاتينية مثلا ، نتيجة لاعتزاز المواطن الشديد بفرديته واستقلالته ، تميل إلى التعدد الحزبى .

والشئ الوحيد الذى يستطيع أن يؤكد عالم السياسة هو أن وجود نظام التمثيل النسبى فى الانتخابات ، بمعنى توزيع المقاعد البرلمانية على الأحزاب حسب نسبة الأصوات التي حصلت عليها ، يؤدي بالضرورة إلى تشجيع كثرة الأحزاب وتعددتها . لكن فى جميع الحالات يظل الأصل هو حق المواطن الفرد المستقل فى ترشيح نفسه لعضوية البرلمان .

الإيديولوجيا ..
بين من لا قلب لهم ..
ومن لا عقل فيهم



حينما تفتح التلفزيون فتفاجأ بأن الراقصات قد أصبحن شهيدات في الوطنية ..
وحينما تفتح مجلة فتجد أن عبد الناصر قد نصبت له المشائق ، أو علقت على صدره
الأوسمة ..

وحينما تتحدث جارتك عن الإنفتاح ، بينما يتحدث أستاذ الجامعة عن التهريب في
شارع الشواربي بالقاهرة ..

وحينما يتحدث الناس عن الأحزاب ، وزعماء الأحزاب عن الصحافة ، والصحافة عن
زيارة أنور السادات لمنطقة القناة ..

وحينما تتحدث صحف الكويت عن الحج في السعودية ، وصحف السعودية عن
السلام في لبنان ، وصحف لبنان عن الوفاق بين أمريكا والاتحاد السوفيتي ..

وحينما يطبع الزعيم الروسي بريجينيف قبلة حارة على جبين الرئيس اليوغوسلافي تيتو ،
بينما يقول الرئيس الفرنسي ديستان عن ملك المغرب إنه صديقه العزيز جدا ..

وحينما تعود المثلة اليونانية ميلينا ميركوري إلى بلدها اليونان بعد أن اتجه غربا ،
وعمر الشريف إلى القاهرة بعد سنوات من الغربة ..

وحينما يكتب نجيب محفوظ عن حزب الأغلبية ، ويتكلم خالد محيي الدين عن قانون
المطبوعات ، وجلال الدين الحمامصي عن الحرية المشكوك فيها ، ومصطفى خليل عن
ملكية الاتحاد الاشتراكي للصحف ..

• جريدة «أخبار اليوم» : ١٩٧٦/١٢/١١

وحينما يقرأ رجل الشارع عن ألف أوتوبيس من أمريكا ، والموظف الصغير عن تحسن قادم في كادر المرتبات ، وأهل المنصورة يطالبون هم أيضا بمدينة حرة كما جرى في بورسعيد .. حينما يحدث كل ذلك .. ليس فقط في عصر واحد أو عام واحد .. ولكن ربما في يوم واحد .. فلا بد للإنسان أن يختل توازنه قليلا وهو يحاول أن يربط بين هذا كله .. إذا كان يستطيع حقا أن يفعل ذلك .

ولكن الإنسان يستطيع فعلا أن يفعل ذلك .

نعم . يستطيع الإنسان أن يكتشف ما يربط بين كل ذلك ، ولو بقليل من المجهود والصبر . المجهود ، لأن العالم الذى نعيش فيه لم يولد فجأة ، وإنما هو نسيج متشابك لا بد أن نمسك الخيط فيه من أوله . والصبر لأن هذه الأحداث والتفاصيل الصغيرة لا يمكن رؤيتها إلا من خلال إدراك للأفكار الأساسية التى تحرك كل هذا .. بحيث أن الناس هم فى النهاية فعلا أشبه بالكومبارس الذين يعرفون حدود الدور أمامهم ، ولكنهم لا يعرفون أصل الرواية .

والرواية أصلها فكرة . والفكرة هى تصور عقلى . والعقل هو الأساس فى الوجود البشرى كله . فالإنسان - من بين كل الكائنات الحية - هو أولا مخلوق عاقل .. بغير أن يعنى هذا بالضرورة أن يكون دائما مخلوقا حكيما .

ومن عقل الإنسان ولدت تلك الأفكار القليلة الكبرى التى حركت وتحرك عالمنا المعاصر . أفكار تتراوح بين الرأسمالية والشيوعية والقومية والفاشية والاشتراكية والديموقراطية .. إلخ .. إلخ .

إنها أفكار بلغت من قوتها وسيطرتها على أفعالنا ، الدرجة التى أصبحت فيها هى القوة الخفية التى تحرك كل التفاصيل أمامنا بغير أن نراها هى بطريقة مجردة . أفكار لم تأت من عقول زعماء سياسيين ، بالرغم من أنها رفعت زعماء إلى السماء وهبطت بزعماء إلى الحضيض .. ولم تساندها امبراطوريات وجيوش .. بالرغم من أنها دمرت جيوشا وحركت امبراطوريات . أفكار قليلة كبرى . كانت هى السبب فى أن الإنسان عاش طوال المائتى سنة الأخيرة فى عصر يسمى «عصر الإيديولوجيات الكبرى» . عصر دخله نصف العالم وهو الآن يخرج منه .. بينما تأخر عنه النصف الآخر ، وهو الآن يدخل فيه .

إن هذه الأفكار الكبرى هي التي تخلق اليوم التفاصيل الصغيرة في حياتي وحياتك..
ابتداءً من فيلم «المتهم البريء» الذي عرضه التلفزيون هذا الأسبوع .. إلى الأحزاب السياسية
التي أصبحت هي قضية مصر هذه السنة .



وأول هذه الأفكار الكبرى الغامضة والمطاطة هي فكرة : الرأسمالية . أن هذه الكلمة
تدخلك الآن إلى الجنة في نصف العالم ، بينما في النصف الآخر تدخلك إلى معسكرات
الاعتقال والتعذيب والجحيم . إنها كلمة لا تشير إلى مجرد معنى لغوي ، ولكنها تشير
إلى أسلوب كامل في الحياة ، ونظرة شاملة إلى الدنيا وعلاقة كاملة مع الناس والأشياء
حولنا . إنها مذهب كامل .. لا يترك بصماته في أفكارنا فقط .. ولكن أيضا في تفاصيل
حياتنا اليومية .

والحديث عن الرأسمالية معناه الحديث عن أول قنبلة زمنية في عصر الإيديولوجيات
الكبرى ، الذي يعيشه الإنسان منذ مائتي سنة .

لماذا مائتا سنة ؟ ألم يولد الإنسان وهو بالطبيعة رأسمالي ؟ ألم يولد وفي دماغه غريزة
التملك ، وأمنيته أن يكون غنيا ؟ ألم يقتل قابيل أخاه هابيل .. بحيث أنه قتل يفسره
البعض تفسيراً اقتصادياً ؟

والواقع ليس كذلك على الإطلاق ، لأن الإنسان ليس شهادة استثمار تصدرها السماء
كما يصدر البنك الأهلي شهاداته هذه الأيام . الإنسان ليس مجرد مشروع استثماري
للطبيعة.. وهو لا يقضى حياته عبداً لتلك العملات التبادلية التي نسميها النقود . نعم ،
يمكن للإنسان أن يكون عبداً ، وقد كان كذلك فعلاً في مراحل طويلة من تاريخه . لكنه
كان عبداً لشيء آخر اسمه : العادة .

نعم . الإنسان بطبيعته مخلوق تصنعه العادة . والعادة في الماضي كانت هي التقاليد
والأوامر التي يضعها الملوك والنبلاء الذين كان كل شيء يتم باسمهم ولحسابهم . لقد اعتاد
الإنسان قديماً أن يعيش في مكان ولادته ، بحيث لا يغادره إلا إلى القبر . إنه يزرع ويأكل
وينجب ويكبر ويشيخ .. وهذا كل شيء . إنه لا يسافر .. لأن السفر مكلف ، وفضلاً عن
ذلك فوسائل المواصلات لم تكن سوى الدواب . إنه لا يدخر لأن البنوك لم تكن موجودة ،

والنقود نفسها متغيرة والتجارة غير منتشرة . إن سوق عكاظ الذى اشتهر فى الأدب العربى لم تكن فيه بضائع أكثر من عشرة بوتيكات فى شارع الشواربى بالقاهرة . وجملة البضائع التى كانت تصل إلى فرنسا سنويا حتى القرون الوسطى لم تكن تملأ قطارا واحدا من قطارات الصعيد فى هذه الأيام .

أكثر من ذلك .. فإن التاجر الذى كان ينقل بضاعته بين مدينتين مثل بال وكولونيا فى ألمانيا .. وهى مسافة تقل عن تلك التى بين القاهرة ودمياط .. كان يدفع رسوما جمركية على بضاعته كل ثمانية كيلومترات .. بحيث تصل البضاعة أخيرا وقد سددت عنها الرسوم الجمركية إحدى وثلاثين مرة !

من ناحية أخرى كانت فكرة التجارة نفسها مرفوضة . ولقب تاجر ، لو قيل عن شخص ، فإنه مقدمة لإدخاله إلى الجحيم ! ولو ذهبنا إلى مدينة بوسطن فى أمريكا مثلا (التى هى الآن قلعة العالم الرأسمالى) سنة ١٦٤٤م - أى قبل أقل من أربعة قرون - فإننا سوف نشهد محاكمة كبرى لمواطن شهير اسمه « روبرت كين » . إنه من رجال الدين القدامى ولم ينجب أطفالا ومن أهل الغنى . إن الإتهام الشائن الموجه إليه فى المحاكمة هو أنه حقق ربحا قدره ستة بنسات (أى ما يساوى أربعة قروش) .. وهذا كسب شائن فاحش . وبسبب هذه الجريمة المنكرة فإن المحكمة تبحث فى احتمال حرمانه من الكنيسة بسبب هذا الذنب الذى ارتكبه .

ولكن ، نظرا لبياض صحيفته فى الماضى ، وشهادة جيرانه بحسن سلوكه . فإن المحكمة تتسامح معه وتكتفى بفصله من العمل وتغريمه ما يعادل مائتى جنيه ! ومقابل هذه «الرحمة» من المحكمة يجثو مستر كين على ركبتيه أمام آباء الكنيسة و : «يعترف والدموع تنهمر من عينيه بما انطوى عليه قلبه من جشع وفساد» !



إن هذا كله كان مؤشرا لنظرة كاملة من المجتمع فى القرون الوسطى إلى الربح والثروة و - بصفة عامة - التجارة . ولأن الإنسان هو عبد للعادة كما قلت ، فإن الابتكار أصبح عدوا للمجتمع . والنقود أصبحت رمزا لإبليس ، بحيث أن الكنيسة فى القرون الوسطى كانت تلقن الناس أنه «لا ينبغي للمسيحى لأن يكون تاجرا» . إن هدف الإنسان فى الحياة ليس هو تحسين مستواه المادى . ولا تحقيق مزيد من الكسب . ولا اكتناز النقود . أما كيف يبيع الإنسان ويشتري .. فإنه يفعل ذلك بالتبادل أو المقايضة .. وليس بالنقود .

وكان هذا مألوفا .. بعثل ما هو مألوف اليوم عند بعض القبائل الإفريقية أن تسال عن عدد الثيران التي تساويها المرأة ، بغير أن يعنى هذا أنك إنسان غير مهذب . أو لم تؤمن بعد بأفكار قاسم أمين وحركة تحرير المرأة !

بكلمات أكثر تخصصا هذه المرة : أن العالم كله ظل حتى القرن السابع عشر لا ينظر بعد إلى الأرض والعمل ورأس المال باعتبارها عوامل إنتاج أساسية يحدد السوق دورها . أن الأرض - بمعنى التربة - كانت موجودة طبعاً . ولكنها لا تمثل فكرة مجردة أو مشروعاً استثمارياً قابلاً للبيع والشراء وتحقيق ربح . إن كل منطقة من الأرض مملوكة لقبيل أو شريف أو «باشا» أو إقطاعى . وكل فلاح يولد على هذه الأرض يظل مقيماً فيها .. يزرعها لحساب مولاه .. ويخبز فى فرنه .. ويخدمه فى حربه . وكل هذا بغير أجر نقدى أو ساعات عمل أو بنك تسليف .

وعندما تكون الحياة راكدة بهذا الشكل ، فإن أى حجر نقدفه على سطحها كفييل بخلق دوامة سريعة متتابعة . ولكى نطبق هذا على الواقع ، يكفى أن نحسب التأثير الاقتصادى لتطور واحد بسيط هو : أن الصوف أصبح سلعة مجزية . والصوف يتطلب المراعى التى يستغلها منتج الصوف لترعى الأغنام فيها . وتقام المراعى عن طريق وضع سور حول مساحة من الأرض ، ثم يعلن الإقطاعى فجأة أن الفلاحين أصبحوا ممنوعين من هذه الأرض .

هكذا استمرت تلك العملية البسيطة . بحيث أنه فى سنة ١٨٢٠ - أى قبل أقل من قرنين اثنين - حرمت دوقه «سذرلاند» فى انجلترا ١٥ ألف فلاح من ٧٩٤ ألف فدان ، وأحلت محلهم ١٣١ ألف رأس من الغنم !

هنا ولدت مشكلة اجتماعية : ما هو مصير هؤلاء الذين طردوا من الأرض ؟ ولكن لم تكن تلك هى المشكلة الوحيدة . فى الواقع أن المشكلة الكبرى قبيل ذلك الوقت كانت هى اقتراب الثورة الصناعية . ولأن الإنسان - كما ذكرت - هو عبد للعادة .. فإنه فى البداية قاوم هذا التطور الجديد بكل ما استطاعه من طرق .

ففى انجلترا مثلاً حدث اختراع ثورى هو : آلة لصناعة الجوارب ! وعندما طلب صاحب الإختراع ترخيصاً من الحكومة ، رفضت الحكومة بكل إخلاص فى سنة ١٦٢٣ . وأمرت بإلغاء هذه البدعة الخطيرة .

وفى فرنسا تحركت الحكومة ضد بدعة أخرى أكثر خطورة وكفرا ، هى استخدام القطن فى صناعة الأقمشة ! ولمواجهة هذا الخطر صدرت فى مدينة «فالنس» الفرنسية وحدها أحكام بالشنق على ٧٧ شخصا ، وبكسر ضلوع ٥٨ على دولاب التعذيب وإرسال ٦٣١ للعمل عبيدا فى القواديس .. وبراءة شخص واحد . وكل تلك الأحكام بسبب جريمة واحدة هى : الإتجار فى أقمشة مصنوعة من القطن ، وهذا محرّم ومجرّم .



كان العصر هو بداية الثورة الصناعية .. والمهنة الوليدة هى التجارة .. والمولود المتعسر هو نظام السوق .. والعملة هى الذهب ، بحيث أن كريستوفر كولومبوس - مكتشف أمريكا فيما بعد - كان يقول عن الذهب إنه شىء مدهش ، لأن من يملكه يصبح سيد كل شىء ، يرغب فيه ، وبالذهب تستطيع أن تدخل الأرواح الجنة . وهو قول لا يختلف كثيرا عن ما يؤمن به كثيرون من مليونيرات القرن العشرين .

لقد بدأ العصر الحديث بحروب الاستكشافات الجغرافية ، بحيث أن الهند وأمريكا أصبحتا أحلام المغامرين ، والشرق أصبح محطاً لأحلام الكثيرين من التجار والبحارة . ولم يكن الملك أو الحكومة هنا سوى تاجر آخر - ولكن أكبر حجماً - مع التجار الآخرين .. بحيث أن الملكة اليزابيث ، ملكة إنجلترا ، ساهمت بأموالها فى رحلة واحدة قام بها سير فرانسيس دريك على السفينة «جولدن هيند» . ومن نصيبها فى أرباح تلك الرحلة وحدها سددت كل ديون إنجلترا الخارجية ووازنت ميزانيتها واستثمرت فى الخارج مبلغاً كان كافياً مع الفائدة المتراكمة عنه لكى يفسر جزءاً من ثروة بريطانيا كلها فيما وراء البحار حتى سنة ١٩٣٠ .



المهم .. بعد أن كان المجتمع ينظر إلى الثروة باعتبارها رجساً من أعمال الشيطان ، والغنى باعتباره صورة بشرية لإبليس .. بدأ يتراجع قليلاً لكى يصل إلى حل وسط هو أن الغنى يحصل على الثروة كدليل على رضا السماء عنه (كمقدمة لكى يصبح الغنى بعد ذلك هو المتحدث باسم السماء على الأرض) !

من ناحية أخرى توسعت الكشوف الجغرافية . ودبت الحركة فى العلوم نتيجة لعصر النهضة فى أوروبا ، وتلاحقت الابتكارات بحيث شهد العصر السابق على العصر الرأسمالى

مولد المطبعة ومصنع الورق والطاحونة التي تدور بقوة الرياح والساعة الميكانيكية وحشد من الإختراعات الأخرى .. بحيث بدأ الفلاحون القدامى يصبحون عمالا جددا .. والمزارع المهجورة تتحول إلى مصانع واسعة .. والعمل من أجل العمل بدأ يتحول إلى العمل من أجل النقود . والتجارة التي كانت تتساوى مع اللصوصية أصبحت هي المهنة القادمة في المستقبل ، والسوق الذي كان ظاهرة طارئة بين موسم وآخر أصبح شيئا ثابتا ودائما ومتسعا . والناس الذين كانوا يعيشون مستسلمين للعادة أصبحوا يسعون للريح لأول مرة . وبعد أن كان يربط بينهم الجوار والقراية .. أصبح السوق هو الميدان الجديد الذي يعرفون بعضهم فيه . وكانت الرأسمالية هي الاسم الذي سوف يطلق على هذا النظام . والفقراء هم على وشك أن يصبحوا وقود هذا النظام الجديد . أما الرأسمالي فهو طفله المدلل ، الذي ينصح الفقراء بالبقاء في فقرهم لأن الله سيعوضهم عنه في الآخرة . وإلى أن يحدث ذلك فسوف يظل هو يحدثهم عن الفضيلة ، خصوصا بعد أن يكسب المليون جنيهه الأولى !



في هذا المناخ المشوش نشر كتاب أكاديمي متخصص عنوانه «بحث في طبيعة وأسباب ثروة الشعوب» . لم يكن مؤلف هذا الكتاب سوى أستاذ جامعي في بريطانيا اسمه «آدم سميث» .. ولم يكن يعيش شيئا في العالم سوى كتيبه . وحينما ولد كانت قريته ماتزال تستخدم المسامير نقودا . بل أن «سميث» نفسه لم يكن غنيا . ولم تكن علاقته بالنقود في حياته مبشرة بأن هذا الرجل سوف يصدر أخطر كتاب في العالم في وقتها ، وأن صدور ذلك الكتاب في سنة ١٧٧٦ سوف يجعل من تلك السنة المتميزة السنة رقم واحد في عصر جديد كامل هو : عصر الإيديولوجيات الكبرى .

إن الكتاب نفسه لم ينتشر بسرعة ، ولم يحقق لمؤلفه ربحا يذكر . وحتى بعد صدوره بستنين لم يجد مؤلفه وظيفة يشغلها سوى نائب للجمارك في «أدنبرة» ، وهي وظيفة مرتبها الشهري خمسون جنيها . مبلغ متواضع تماما في حينها .

لم يكن الكتاب نفسه يضم أفكارا مبتكرة كثيرة . ولكنه . مثل كل الأفكار الكبرى في التاريخ ، كان حصيلة لتفاعل قوى عديدة متناثرة وغامضة تعمل منذ زمن بغير أن يلاحظها أحد . إلى أن جاء «آدم سميث» ليكتشف الرباط الخفي بين تلك القوى ، ويضع لها عنوانا واحدا هو «الرأسمالية» .. أو بعبارة أدق : الليبرالية .

كان جوهر النظرية التي يمثلها كتاب «آدم سميث» هو : دعه يعمل . إن واجب المجتمع هو أن يدع كل شخص يسعى لعمل كل شيء يحقق للفرد مصلحته . إن الفرد يسعى للربح . إذن .. دعه يربح ، ويربح أكثر ما يستطيع . إن الذي سوف يحد من جشعه هو ليس سلطة الحكومة .. بل جشع تاجر آخر ينافسه . إن المصلحة الذاتية هي الأساس . والسوق هو الذي يقوم بدور القوة الخفية لتشغيل وتصحيح المجتمع . ففي السوق .. حيث الحرية والمنافسة .. سوف تستقر السلعة عند أقل سعر لمصلحة المستهلك نفسه .

إن هذه البذرة سوف تتعرض فيما بعد إلى تعديل وإضافة من مفكرين رأسماليين آخرين . ولكنها في تلك اللحظة ، وعند صدورها لأول مرة في سنة ١٧٧٦ ، سوف تكون هي النظرية الأساسية التي تحدد ملامح ايدولوجية ليبرالية كاملة ، ونظام رأسمالي كامل . إن اعلان الاستقلال الأمريكي . الذي وقع مندوبو الولايات المتحدة في نفس السنة انفصالا عن التاج البريطاني ، سوف يعطى لهذا الكتاب معنى سياسيا . ثم ستأتي الثورة الفرنسية أيضا لكي تمثل الجناح الديمقراطي في سياسة هذا النظام الاقتصادي . ومن هذا كله تتكامل الايدولوجية الأولى في عصر كامل من الإيدولوجيات المتتابعة .. التي ستؤالي في شكل فعل ورد فعل لشيء أكبر وأهم هو : الثورة الصناعية .



لقد انطلقت الطلقة الأولى في عصر جديد كامل من الإيدولوجيات المتتابعة .. من ليبرالية واشتراكية وشيوعية وقومية وفاشية . إن كلا منها تمثل نظرية عريضة وشاملة للحياة والتطور .. بحيث أن جميع الحروب الكبرى التالية سوف تجرى تحت علم واحدة من تلك الإيدولوجيات وباسمها . أن أتباع كل ايدولوجية منها - ابتداء من الرأسمالية إلى الشيوعية - سوف يؤمنون بأن الجنة لهم وحدهم .. والجحيم لأعدائهم . الحق في جانبهم والخطأ كله هو موقف خصومهم . أن حروبهم سوف تكون عنيفة ونهائية وحاسمة وتجري حتى النهاية .. لأنها استعارت بعض ملامح الحروب الدينية القديمة حتى القرون الوسطى .

إن السبب هو أن الأديان الكبرى تبشر أتباعها بدخول الجنة .. ولكن في الآخرة . أما الرأسمالي أو الاشتراكي أو الشيوعي فيؤمن بأنه سيرى الجنة هنا .. على الأرض .. وفي حياته هو . أو حياة أولاده على الأكثر . وابتداء من آدم سميث أبي الرأسمالية إلى

كارل ماركس أبى الشيوعية إلى ماتزبني أبى القومية إلى موسولينى نموذج الفاشية .. سوف نلاحظ أن كل تلك الإيديولوجيات يجمع بينها ثلاث صفات أساسية :

□ فأولا - كلها تنذر نفسها لأهداف مثالية حالة . أن المفهوم الليبرالى الرأسمالى عن السوق الحرة .. والمفهوم الشيوعى عن مجتمع بلا طبقات .. هما نموذجان لهذه الأهداف غير الواقعية من البداية . أهداف مثالية تثير التفاؤل نحو المستقبل .. وتكفل للأنصار الإيمان بأنه بمجرد الوصول إلى الهدف المرسوم .. فإن كل المشاكل الكبرى للحياة الحديثة سوف تختفى فجأة .. وفورا .

□ وثانيا - التبسيط الشديد . فكل ايديولوجية كبرى تميل من البداية إلى الإفراط فى التبسيط . أن كلا من الرأسمالى والشيوعى يؤمن على أساس : نحن وهم .. صديق أو عدو .. ملاك أو شيطان . إنك إما معه جدا .. أو ضده تماما . إما حليف له أو عميل للشيطان . الذى هو بالضرورة عميل لقوة أجنبية وشيطانية ومخربة هى الطرف الآخر .

نظرية كارل ماركس مثلا تفترض لنفسها القدرة على احتكار التحليل العلمى للاقتصاد . وهكذا تبدأ تفكيرها العلمى بمقدمة غير علمية بالمرّة . إنها تتنبأ بشكل محدد للمستقبل بناء على قراءة محددة للماضى . وأنت إما أن تقبل هذا كله أو ترفضه كله .

أن كل ايديولوجية تؤمن بأنها هى وحدها التى تعرف على وجه التحديد أين يوجد رخاء الجنس البشرى وماهى مصلحته .. بينما الواقع لم يعرف أبدا مثل هذه البدائل الحادة من الأبيض والأسود .

□ وثالثا - إن كل ايديولوجية من تلك الأيديولوجيات الكبرى استمدت قوتها وعنفوانها من نظرتها التفاؤلية الشديدة لمستقبل التقدم البشرى . إن هذا التفاؤل نفسه كان هو سر قوتها . ولكنه .. فيما بعد .. سوف يصبح هو سر ضعفها .



.. والآن . بعد أكثر من قرنين من بداية هذا العصر الجديد - عصر الإيديولوجيات - أين يقف العالم ؟ بل .. وأين تقف هذه الإيديولوجيات نفسها ؟

إن الرأسمالية الموجودة اليوم فى أمريكا أو أوروبا الغربية تكاد تكون لا علاقة لها بالنظرية الأساسية التى وضعها آدم سميث فى سنة ١٧٧٦ وما بعدها . ولو خرج هو اليوم من القبر

جدلا لأصابه الذعر من القيود العديدة التي وضعها المجتمع الغربي الرأسمالي على رأسمالية القرن العشرين . بل أن الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت ، وهو نفسه رأسمالي قح ، كان هو الذى بادر فى ثلاثينات القرن العشرين إلى فرض القيود المتتابة على الرأسمالية ، حماية للرأسمالية .. من الرأسماليين . وأوروبا الغربية فى سعيها لإعادة النهوض بعد خراب الحرب العالمية الثانية ابتكرت لنفسها نموذجا من الرأسمالية يختلف جذريا عن النموذج الأمريكى من حيث إلزام الرأسمالية بدرجة أكبر من المسؤولية الاجتماعية لم تكن ستلتزم بها طواعية .

والشيوعية التى تحدث عنها كارل ماركس فى كتابه «رأس المال» وبعده سوف تعتبر اليوم ، فى نظره هو على الأقل ، مزيفة إلى أكبر حد ممكن . ليس هذا فقط .. بل إن معنى الشيوعية نفسه تغير كثيرا جدا . أن الشيوعية كانت تعتمد على ايدولوجية هى «الماركسية/ اللينينية» .. وقائد أعظم «لينين/ ستالين» .. إلخ . وقوة أعظم هى الاتحاد السوفيتى .. وامبراطورية كبرى هى المعسكر الشرقى .. وحركة عالمية هى الأحزاب التابعة التى تقودها موسكو .

هذا ما اعتادت الشيوعية أن تكونه . ولكن .. ماذا بقى منها الآن ؟ هناك شيوعية صينية ، وشيوعية يوغوسلافية ، وشيوعية أوربية ، وشيوعيات أخرى كثيرة . إن هذا التعدد والإنقسام لايعبر فقط عن ملامح جغرافية خارجية .. ولكن عن تفكك داخلى فى الإيدولوجية نفسها .. حتى أن البعض حاول أن يطلق الشيوعية السوفيتية إلى الأبد ولم تمنعه من ذلك سوى قوة الدبابات (كما فى حالات المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا) .

أكثر من ذلك .. فإن اليسار كان معناه التقليدى من قبل هو الاتجاه شرقا .. إلى موسكو . ولكن اليسار الآن أصبح معناه أكثر وأكثر هو الطلاق مع موسكو . وبعد أن كانت الشيوعية - كإيدولوجية - تخوض حربا هجومية قبل عشرين سنة .. أصبحت الآن تخوض حربا دفاعية داخل حدودها .



مرة أخرى : ماذا حدث ؟ وكيف ولماذا حدث ؟

لقد كانت كل ايدولوجية من قبل ، فى مواجهة خصمها ، تمثل الخير ضد الشر . الآن .. تراجعت الحروب الإيدولوجية إلى الوراء تماما . إن اليمين فى السياسة لم يعد

معناه وجود حكومة قوية فى السلطة .. وإلا اعتبرت حكومة فيديل كاسترو فى كوبا ، وخلفاء ماوتسى تونج فى الصين ، من اليمين .

واليسار لم يعد معناه المساواة الاقتصادية الكبرى .. وإلا فإن المجتمعات البدائية فى قبائل افريقيا تعتبر اليسار المتطرف . ولا حتى أصبح معنى اليسار هو التقدمية المذهبية . فالتطورات العلمية والتكنولوجية المتلاحقة فرضت مضمونا جديدا للتقدمية ، بحيث تصبح الدولة المتخلفة عن هذا المضمون هى الدولة الرجعية .

لم يعد اليمين معناه الأوتوماتيكي هو المحافظة على الأمر الواقع . واليسار هو الآخر لم يعد معناه الأوتوماتيكي هو العدالة الاجتماعية وحدا أعلى للدخل.. وإلا فإن السويد تعتبر الآن أكثر يسارية من الاتحاد السوفيتى نفسه ، وهروب المخرج السينمائى انجمار بيرجمان ، ومن قبله انجريد بيرجمان ، هو هروب اختيارى من الجنة .



إذن .. ماذا الآن ؟

أن الظاهرة الأساسية هى أن عصر الإيديولوجيا بدأ مولده فى أوروبا الغربية ، ولأسباب كثيرة كانت مقبرته هناك أيضا . وفى كل دول أوروبا الغربية تسيطر على الحكم أحزاب ملتزمة رسميا بالديموقراطية الدستورية . وفى كل دول أوروبا الغربية هناك قبول متزايد لمسئولية الحكومة عن جزء كبير من الخدمات الاجتماعية .. بالرغم من أن بعض الليبراليين يدينون هذا الاتجاه .. وحتى بعض الماركسيين يدينونه أيضا من زاوية مختلفة باعتباره «خيانة لمصالح الطبقة العاملة» .. فإن الاتجاه مستمر والديموقراطية متزايدة . هناك مراجعات مستمرة داخل اليمين من جهة ، واليسار من جهة أخرى . بل أن كل منهما يتجه فى لحظات الشدة إلى الاستعارة من الآخر .

إذن .. ماذا بعد الإيديولوجيا ؟

لقد لعبت الإيديولوجيات دور الماكياج على وجوه الدول والشعوب لأكثر من مائتى سنة . والآن يزول هذا الماكياج بحيث تعود العلاقات بين الدول إلى ما كانت عليه دائما.. فتصبح علاقات بين مصالح اقتصادية . أن فرنسا وانجلترا ، اللتين فصلتهما دماء وحروب قرونا طويلة .. هما الآن فى ناد اقتصادى واحد هو السوق الأوروبية المشتركة (ستتطور تاليا إلى : الإتحاد الأوروبى) .

والصين والاتحاد السوفيتي اللتين جمعتهما ايدولوجية واحدة .. تطورت العلاقات بينهما إلى العداء الشديد ثم إلى الصدام الصامت في المصالح الاقتصادية والعسكرية .
أكثر من ذلك .. أن الوافق الأمريكي السوفيتي نفسه هو وفاق فنى بعض المصالح الاقتصادية .. وربما يتحول تاليا إلى وفاق بين واشنطن وموسكو باعتبارهما أعضاء فى ناد واحد .. أو حتى «طبقة» واحدة .. ضد ناد آخر و«طبقة» أخرى .. هى دول الشمال فى مواجهة دول الجنوب .



لقد نشأت الإيديولوجيات فى أوروبا وأمريكا كظاهرة مصاحبة للثورة الصناعية . إن تحمل آلام المخاض الصناعى لم تكن ممكنة إلا فى ظل مجموعة شعارات براءة تعد الإنسان بأز الجائزة كبرى وموعدهما قريب ومكانها هنا .

الآن استقرت الصناعة فى أوروبا وأمريكا ، متزايدة فى اليابان وأجزاء من آسيا ، بحيث أن الإيديولوجية التى كانت بشير عصر قادم ، أصبحت مخدر عصر مضى . إنها كذلك عند الأغنياء . ولكنها لم تصبح كذلك ، بعد ، عند الفقراء . ففى اللحظة التى بدأت فيها الدول المتقدمة تخرج من عصر الإيديولوجيا .. بدأت الدول النامية تدخل هذا العصر نفسه ، بنفس الحماس ، ونفس الشعارات ، ونفس الانقسامات .

هل تصبح الإيديولوجيات بالنسبة للدول النامية ممثلة لمعارك قرن مضى .. أم دليل ولادة قادمة ؟

هذا سؤال آخر وله إجابة أخرى .

وقديما قالوا : من لا يصبح يساريا فى شبابه .. لا قلب له . ومن لا يصبح يمينيا فى شيخوخته .. لا عقل له . أما بعيدا عن مثل تلك الأقراص الكلامية الساخرة أو المداعبة .. يظل التحدى الأكبر أمام مجتمعاتنا النامية هو : بناء الدولة العصرية .. وبأقصى سرعة .



فن الحب

دقت لي بعينها السلام . أهلا !
ثم سألتني : لماذا ؟ .. لماذا لم تقل لي : أحبك ؟ هي كلمة بسيطة .. نعم .. ولكنها
مشحونة بالعواطف .. معبأة بالمشاعر . قلها لي مرة ومرة ومرة . فالحب يبحث
عن التكرار . الحب لا يمل من الإعادة . الحب كلمة . إشارة . نظرة .
و ... بدأت أرد . رد قصير مختصر .
لقد ركزت ردي لها في قبلة !
و .. لم تسألني بعدها مطلقا . إنها فقدت النطق .
..... مع أنني ما زلت أرد !

عاش كما لم يعيش إنسان من قبل !
عاش مغامرا ، وفيلسوبا ، ومقامرا ، وأديبا ! عرف ألف امرأة .. ولم تعرفه امرأة
واحدة . قضى ليالي شبابه كعاشق . ولكنه مات في شيخوخته كمجرم . صادق الملوك والأمراء
والنبلاء . ولكنه عندما مات لم يتذكروا حتى اسمه الصحيح ، أو عمره الصحيح !
إنه كازانوف دى سينجالت جوفانى جاكومو . مغامر ومؤلف إيطالي ولد في سنة ١٧٢٥
ومات في سنة ١٧٩٨ . ولكنه - ما بين مولده ووفاته - سجل قصة لأكبر عاشق في العصر
الحديث .

أن قيمة كازانوف كأديب ما زالت حتى الآن محل مناقشة . إن أهم عمل أدبي تركه لنا
هو مذكراته الخاصة . ولكن الإجماع يظل في النهاية حول نقطة واحدة : إن المهم ليس

• مجلة آخر ساعة ، ١٩٦٩/٣/٢٦ .

هو الأسلوب الذى سجل به كازانوفاً مذكرات حياته ، ولكن المهم هو الأسلوب الذى عاش به حياته نفسها .

كازانوفاً..

رجل إيطالى ، طويل القامة ، عريض الكتفين ، قوى الكفين ، بارز العظام ، واسع الجبهة ، قلق العينين . منظر صائد ، مغامر . إنه يعرف شيئاً من كل شىء . إنه شاعر بغير انتظام ، لص بغير احتراف ، فيلسوف أحياناً ، أديب أحياناً ، وجنتلمان دائماً . المهم أن هناك كلمة «أحياناً» بعد كل صفة تتعلق بكازانوفاً .. إلا صفة واحدة : عشقه للنساء . أن كازانوفاً لا يريد أن يعيش عمراً واحداً ، بل مائة . لا يريد امرأة واحدة .. بل ألفاً ! و ... عرف كازانوفاً فعلاً ألف امرأة !

لقد عاش ٧٣ سنة . عاش لا يخجل أبداً ، بل يغامر دائماً . لا يتردد أبداً ، بل يتقدم دائماً . لا يفكر أبداً ، بل يندفع دائماً .

لقد سجل مذكراته فى ١٦ مجلداً ، مألهاً بأسفاره .. من بحيرة جنيف إلى سهول روسيا . من إيطاليا جنوباً إلى انجلترا شمالاً . ومع ذلك فعندما نقرأ هذه المذكرات لا نجد مطلقاً وصفاً لآى منظر جميل فى الطبيعة . لا . لم يكن كازانوفاً من هذا النوع . أن منظر فتاة صغيرة قادرة تضحك مع جنود سكارى أهم عنده من كل أعمال الفن الإيطالى . إنه فى المجلد الثانى من مذكراته يصف لنا كيف ذهب إلى نابولى (إيطاليا) لعمل هام . وفى الفندق الذى نزل فيه يسمع صوت امرأة تقضى ليلتها مع ضابط مجرى فى الحجرة المجاورة . أن كازانوفاً سمع صوتها فقط . صوت امرأة شابة تضحك . إنه لم يعرف بعد هل هى حسناء أم دميمة .. جذابة أم منفرة .. ممكنة أم مستحيلة . لا شىء من هذا يعرفه بعد . ومع ذلك فإنه يلغى فوراً كل خططه ويقرر البقاء لكى يجرب حظه مع هذه المغامرة الجديدة .

إن المدينة بغير مغامرة حب ليست مدينة تصلح له . إن الدنيا بغير امرأة ليست دنياه . أى امرأة .. كل امرأة .. لا يهم . شهر واحد ، أسبوع واحد ، بل حتى يوم واحد . هذا يكفى . دع عينيه تقعان على أى امرأة . لحظتها تنبض كل شرابينه . لحظتها يتحرك نحوها بلا وعى .. بغير دافع سوى غريزته . أن كازانوفاً يتخذ قراراته كطلقات مسدس ..

نتيجة مفاجئة لضغطة بسيطة على الزناد . إنه مثل نابوليون - الذى عاصره فى أواخر حياته - يحب أن يضيف أرضا لأرض ومملكة لمملكة ، مدفوعا بعطش لا نهائى للغزو . وهو مثل دون جوان - الذى سبقه - يحب أن يغرى امرأة بعد أخرى ، مدفوعا بعطش لا نهائى للنساء .

أن كازانوفيا فى الواقع لا يعشق امرأة واحدة . إنه يعشق كل امرأة . يعشق جنسا بأكمله ! إن شيئا لا يستطيع أن يقف بينه وبين كل امرأة يحبها . لقد شرب السم مرتين ، وأصيب بأمراض تناسلية أربع مرات ، وتلقى طعنات السيوف ١٢ مرة ، وقضى سنوات من عمره فى سجون أسبانيا ، وفر فى رحلات سريعة من مرتفعات صقلية إلى غابات روسيا . ولكن شيئا من هذا لم يستنفد طاقته . إن جسمه لا يستريح ، وشهوته لا تشبع ، وعشقه لا يموت . لكنه نسى شيئا واحدا .
و... عرف كازانوفيا ألف امرأة .

لم يكن هو وحده البادئ فى الألف مرة ، ولكن النساء أنفسهن كن يقبلن عليه . أن كل امرأة كانت تتحول إلى داعية له . دعاية تسير على قدمين ! أن كازانوفيا كان بالنسبة لكل امرأة إلها لمدة ساعة ، معبودا لمدة ليلة ، ذكرى لمدة سنة ، وحسرة بعد عشرين سنة . السبب : إن كازانوفيا لا يريد امرأة . إنه يريد كل امرأة . كازانوفيا رجل بلا ماضٍ . بلا مستقبل . إنه يريد أن يعيش هذه اللحظة فقط .. مع هذه المرأة فقط . وعندما يحصل على امرأة ، فإنه يبحث فورا عن امرأة أخرى .
وكان دائما يجد هذه الـ .. امرأة !

سنة .. وسنة .. وسنة ، ثم : اكتشف كازانوفيا أنه لم يتنبه لشيء واحد . انه نسى شيئا واحدا : الشيخوخة !

لقد اكتشف أن رأسا يشغل نفسه دائما بجسم آخر ، لا بد أن يكون دائما رأسا فوق جسم شاب . الشباب هنا هدف . شرط . ضرورة . وبمجرد أن تتوقف شعلة الحياة فى الجسم الشاب .. تنهار الفلسفة كلها . إن كازانوفيا ظل كازانوفيا ما دامت أسنانه صلبة وبيضاء .. ما دام شعره أسود طويلا .. ما دام جسمه قويا فارعا . أما عندما تآكلت الأسنان ، وتساقط الشعر ، وانثنى الجسم .. فلقد ظهرت المشكلة المؤجلة . مشكلة بلا حل .

إن الحياة - كبنك متزمت - بدأت تطلب منه أن يعيد إليها ، مع الفوائد ، الطاقات الجسمانية التي أنفقها مبكرا وبسرعة . إن جاذبية كازانوفيا تأتي من سعادته . وسعادته تأتي من شبابه . انه جذاب ما دام شابا . أما إذا لم يعد شابا .. إذا لم يعد جذابا .. فما هي النتيجة ؟

هذه هي : فى لندن .. يضطر إلى أن يتسلل ليلا فى الظلام والضباب حتى لا يحكم عليه بالسجن . فى وارسو يجرى البحث عنه كمجرم . فى فيينا ومدريد يحكم عليه بالنفى . فى باريس يتلقى أمرا بالقبض عليه وسجنه بغير محاكمة . إذن .. أصبح كازانوفيا شخصا غير مرغوب فيه . شخصا لا يطلبه أحد . لا تطلبه امرأة .. وهذا هو المهم . فى هذه اللحظة تبدأ مذكرات كازانوفيا فى الكشف عن أولى علامات فقدان ثقته فى نفسه . إن التى أسعدته فى البداية هى التى تعاقبه الآن : المرأة ! وأى امرأة ؟ عاهرة ! أنها تقابله فى لندن .. وتغريه .. وتجرده من كل نقوده .. ثم ، ترفض حتى السماح له بأن يضع إصبعها على جسمها . هنا بالضبط يقول كازانوفيا : «أن ما أزعجنى أكثر هو أنني بدأت أفقد تلك القوة التى لازمتنى . لم أعد شابا» .



لماذا ؟ لماذا هذه النهاية المؤلمة ؟

أن كازانوفيا يقول فى مذكراته : «إن أربعة أخماس متعتى انصرفت إلى جعل النساء سعيدات» . فى هذه الجملة القصيرة تكمن مشكلة كازانوفيا ، وإحدى مشاكل الحب نفسه فى عالمنا المعاصر .

المشكلة هى أن كازانوفيا كان يعشق المرأة .. بينما المطلوب أن يعشق امرأة . أن كازانوفيا لم يختار . لقد أراد كل امرأة . ليست هذه عاطفة . هذه غريزة . ليس هذا حبا ، بل شهوة . ليس شعورا .. بل رغبة . والرجل ليس إنسانا .. إنه صائد . بالطبع يستطيع الإنسان أن يكون صائدا أحيانا .. ولكن ليس دائما . والإنسان - أى إنسان - لا يستطيع أن يكون إنسانا ناضجا قبل أن يحب . وعندما يحب الإنسان فلا بد أن يختار . لا بد من ذلك لأن الحب هو وجهة نظر . موقف . قرار . اختيار . إنه قرار بالاختيار . اختيار «هذه» المرأة بالذات ، أو «هذا» الرجل بالتحديد . ولا يستطيع أن يحب من لا يستطيع أن يختار .



إن الحب - من وجهة نظر كازانوا - هو علاقة جسد بجسد . كازانوا ليس وحده في ذلك .. بل أن معه في هذه النظرة فربما كاملا من الأدباء والشعراء ظهوروا في مراحل التاريخ الإنساني .

وفى مقابل ذلك - فى الجانب الآخر - نجد من ينظر إلى الحب باعتباره عاطفة مجردة . انه هنا ليس علاقة جسد بجسد ، بل عقل بعقل . ليس تقابل غريزة مع غريزة ، بل عاطفة مجردة مع عاطفة مجردة . ليس الأدباء هذه المرة .. بل الفلاسفة هم الذين يأخذون الحب من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين . أفلاطون مثلا . إن اصطلاح «الحب الأفلاطونى» فى حد ذاته ظل طوال الـ ٢٣ قرنا الماضيه عنوانا لنوع من الحب يتجرد فيه الطرفان من أية علاقة جسدية ، ويسموان فيه على أية علاقة جسدية .



هذه إذن هى الفلسفة والأدب يقفان على طرفى نقيض عنما يحاولان تفسير الحب . إن موقف كل أديب معاصر أو غير معاصر ، وموقف كل شعب وكل مجتمع ، لابد أن تجده فى نقطة ما بين الطرفين .

والواقع أن المفهوم الصحيح للحب هو الذى يحقق نقطة التوازن بين الجانب العاطفى والجانب الغريزى فى الحب . ونحن نحاول الآن أن نكتشف نقطة التوازن هذه من تاريخ الأدب نفسه .

لماذا الأدب ؟

لأن تاريخ الأدب هو فى الواقع تاريخ الحب بمعنى ما . فالحياة تتقبس بعض أشكالها من الأدب . لكن القاعدة أن الأدب - فى النهاية - هو «حياة مطبوعة على الورق» . وكل مفهوم إنسانى يلجأ فورا إلى الأدب للتعبير عن نفسه . إن الأديب والمؤرخ كلاهما يسجل التطور . فارق واحد بينهما : المؤرخ يجمد التطور فى درجة الصفر لكى يسجله . أما الأديب فيسخن التطور إلى درجة الغليان لكى يعبر عنه . إنه فارق فى الوسيلة وليس فارقا فى الهدف . وحينما نفحص أدب كل شعب سنجد فورا نموذجا للعلاقة بين الرجل والمرأة كما يراها هذا الشعب فى مرحلة من المراحل . فى الأدب العربى مثلا نجد قصة «قيس وليلى» وقصة «جميل وبثينة» . فى الأدب الإنجليزى «روميو وجوليت» . وفى الأدب الفرنسى نجد «بول وفيرجينى» و«أوكاسان ونيكوليت» ... إلخ .

إن الأديب يصف قبل أن يخترع . إنه يسجل قبل أن يحكم .
 وفى البحث عن مفهوم صحيح للحب يجب أولاً أن نحدد الحب الذى نبحث عنه .
 يجب مثلاً أن نحدد طبيعته .. هل هو غريزة .. أم عاطفة ؟
 الواقع أن الحب فيه جزء من الغريزة ، وفيه جزء من العاطفة . لكل جزء وجود مستقل
 وطبيعة مستقلة . الجزآن قد يوجدان معا .. وقد ينفصلان تماما . حينما ينفصلان نصح
 أمام جنس .. وحب . الجنس غريزة . دافع رئيسى كالجوع والعطش ، له مثلهما أجزاء
 جسمانية تعبر عنه . هدفه اختفاء توتر جسمانى مرتبط بتغيرات داخل كيانه العنصرى .
 لا شىء من هذا فى الحب . الناس العاديون يقولون إن مكان الحب هو القلب . فإذا
 لم يكن مكانه فى القلب .. فإننا لن نستطيع أن نحدد له مكاناً آخر فى الجسم . الجنس
 غريزة عند كل الناس ، بينما الحب لا يشعر به كل الناس . بل أن ملايين من الناس
 - على مدى قرون كثيرة وفى ظل ثقافات عديدة - لم تعرف عاطفة الحب .

والجنس غريزة عامة ، بينما الحب عاطفة شخصية وشخصية جدا . إنه علاقة عاطفية
 بين هذا الرجل وهذه المرأة . الجنس شهوة ، والحب عاطفة . الجنس موجود فى الإنسان
 وفى الحيوانات ، بينما الحب هو حصيلة نمو ثقافى . الجنس يخضع للزمن .. فقد تزيد
 الرغبة الجنسية فى لحظة وتنقص فى لحظة أخرى . ولكن .. لاشىء من هذا فى الحب ..
 لأن الحب (مؤقتاً) دائم .. أما الجنس فمؤقت . والرجل الذى تحكمه غريزته يبحث عن
 أى امرأة . أما الرجل الذى يحب فموضوعه محدد : هذه الفتاة وحدها .. بالذات !
 والجنس - كغريزة - محدود فى اهتماماته .. بعكس الحب . الجنس يهمله لحظة
 الإرتواء فقط . أما الحب فيقف على الطرف الآخر . إن الشخص الذى يحب يكون سعيداً
 بسعادة محبوبته .. يتأثر لغيابها .. ويتألم لفراقها .. ويخاف عليها .. ويحزن لحزنها .



والسؤال الآن هو : لماذا نحب ؟

إن كل حضارة تحاول تقديم اجابتها الخاصة على هذا السؤال . فى الحضارة الإغريقية
 مثلاً .. توجد أسطورة أدبية جميلة تقدم تفسيراً لهذه المشكلة .

تقول الأسطورة : إن الإنسان خلق أولاً من جنس واحد . ثم غضب الإله « زيوس » الأكبر
 على الإنسان ، فقرر أن يقسمه إلى شطرين . إلى نصفين . إلى ذكر وأنثى . وقرر الإله الأكبر

أيضا أن يظل كل نصف منهما محتاجا إلى نصفه الآخر .. يبحث عنه . ومقابل ذلك وضعت الألهة ضمانا جديدا . فمن كان مطيعا لها ولا يتمرد عليها .. فإن الألهة سترشده إلى نصفه الثاني .. وبذلك سيجد حبه الحقيقي . أما لو تمرد على الألهة .. فسيظل طوال حياته يبحث عن نصفه الضائع .. بلا جدوى .

إن الفلسفة وعلم النفس المعاصرين يصلان إلى نفس النتيجة حينما يفسران المشكلة كما يلي : إن الحب هو الحل الوحيد لمشكلة شعور الإنسان بوحدته . إن الحب هو القوة التي تحافظ على وجود الجنس الإنساني . تحافظ على وجود الأسرة ، والعشيرة ، والمجتمع .

المهم .. إن الحب هو الحل الوحيد لمشكلة وحدة الإنسان وشعوره بتلك الوحدة . إنه ضرورة دائمة وحكم أبدي . هذا رأى متفق عليه بين أقدم الحضارات وأحدثها . الخلاف يأتي فيما بعد . الخلاف يأتي في تفسير الحب نفسه . في تحديد دوره .



فعندما نام آدم .. خلقت حواء من ضلعه . لكنها كانت المرة الوحيدة التي نام فيها مستريح البال ! إن الإنسان - الآن وفي أى وقت - مشغول بالحب لأن الحب ملازم له دائما . من مولده إلى مماته .. من السبت إلى الجمعة .. من الصباح إلى المساء .. الحب معنا دائما .. أمامنا دائما .. لغز دائما .. متناقض دائما .

وعندما نعود خلفا إلى الحضارة الإغريقية نجد أن أفلاطون يذكر لنا أسطورة جميلة تلخص تناقضات الحب . وتقول الأسطورة : أن الألهة أقامت وليمة احتفالا بليلة مولد «أفروديت» . وكان من بين الألهة الحاضرين الأله «فوروس» .. إله الغنى . بعد قليل جاءت «بنيا» - الفقر - لكي تمد يدها طالبة الإحسان . وشرب «فوروس» من رحيق السماء حتى ثمل .. إذ لم تكن الخمر قد خلقت بعد .. فهام على وجهه فى حدائق زيوس حتى غلبه النعاس وذهب فى نوم عميق . ورأت «بنيا» - الفقر - أنها لا تملك شيئا فخطر ببالها أن تلد من «فوروس» - الغنى . وكان المولود اسمه إيروس (الحب) .

ومادام الحب - كما تقول الأسطورة - هو ابن «فوروس» و«بنيا» .. يعنى ابنا للغنى والفقر .. فإن أحواله تصبح كما يلى : إنه فى فقر دائم ، وليس كما يتوهمه عامة

الناس من الرقة والجمال .. بل على العكس هو خشن الطبع ، قذر ، يمشى حافى القدمين ، بلا مأوى ، ينام فى العراء وعند أبواب الدور أو فى الطرقات . هذه صفات ورثها عن أمه .

ولكن .. لما كان قد ورث الغنى أيضا عن أبيه ، فإن الحب يسعى إلى الحصول على كل ما هو جميل وخير . إنه شجاع ، مقدام ، صائد بارع ، واسع الحيلة ، ينصب شبابه دائما . إنه - مثل أبيه - عاقل وغنى . ولكنه - مثل أمه - فقير وغبى ! إنه حى فى لحظة .. ميت فى اللحظة التالية !

الحب إذن ليس إلها . ولكنه متوسط بين الآلهة والبشر . وهو ليس فانيا ولا خالدا . لو كان إلها ما طلب الحكمة . ولو كان جاهلا ما طلب الحق . إنه وسط بين الاثنين . إنه أيضا وسط بين طرفين : المحب .. والمحبوب .



والحب نفسه على أنواع . لقد رأينا من قبل نظرتين متطرفتين للحب : واحدة ترى الحب عاطفة مجردة .. والأخرى تراه غريزة عمياء . واحدة تناصر «الحب للحب» .. والأخرى تؤيد «الحب للجنس» . وبين النظرتين تراوح موقف الأدب الإنسانى .

فى القرون الوسطى مثلا .. كانت القمة محجوزة دائما لمفهوم «الحب للحب» . والواقع أن أكثر العشاق خلودا هم الذين نسجت عنهم الأساطير وكتبت عنهم الروايات فى القرون الوسطى . بل أن الأدب المعاصر ما زالت لديه امتدادات لعشاق القرون الوسطى .

خذ قصة «لوليتا» مثلا ، التى ألفها الكاتب الأمريكى فلايديير نابوكوف . أن لوليتا فتاة لا يزيد عمرها على ١٢ سنة وسبعة أشهر . إنها حتى لم تصل بعد إلى الثالثة عشرة . ولكن «لوليتا» فتاة تتمتع بسحر مزعج وشفافة بريئة .. هكذا تقول القصة . تقول أيضا أن «همبرت» - البطل - هو رجل أوربى فى أواخر الثلاثينات من عمره . إنه يعيش فى أمريكا منذ مدة قصيرة . إن همبرت يكتشف لوليتا فى مدينة أمريكية صغيرة كان يقضى فيها إجازته . الحب من أول نظرة . ثم .. حيلة جنونية لكى يستحوذ على الطفلة . إنه يتزوج أمها أولا . ولكن الأم سرعان ما تموت فى حادث سيارة .

هنا يلجأ همبرت إلى أخذ لوليتا بعيدا إلى فندق . إنه يعطيها منوما .. ولكنه لا يجرؤ على أن يستفيد من نومها ، فيظل طول الليل بلا حراك . في الصباح تكون هي - لوليتا - التي تغريه . ثم .. يبدأ الطيران الطويل للفتاة وزوج أمها .. تتبعهما خطيئتهما . إنهما يستمران في التجول معا من مدينة إلى مدينة .. إلى اليوم الذى تهرب فيه لوليتا بعد أن أغراها رجل آخر (سوف يقتله همبرت) . وفى سن السابعة عشرة - بعد أن تزوجت من ميكانيكى شاب - فإنها تموت . أن موتها يقع بعد أسابيع قليلة من إصابة همبرت بجلطة دموية . إن هذه فضيحة بأكثر مما هى قصة . والواقع أن المؤلف نفسه لا تفوته فرصة إلا ويعلن فيها إدانته للبطل ، ولهذا النوع من العشق الذى يمثله . إن البطل يجد نفسه مرفوضا من الوسط الاجتماعى المحيط به . مرفوضا من قوانينه وتقاليده . ويجد نفسه مهجورا من حوريته . والنتيجة إنه يرتكب جريمة جنونية ويموت مخمورا بالحب فى سجنه ، كعقوبة صارمة لعوافه .

إننا فى هذه القصة نجد أنفسنا مشاركين للمؤلف فى إثارتة ، مصفقين للغة ، ضاحكين معه ، ولكننا لا نتحرك عاطفيا مطلقا . فالقصة ، كعمل أدبى ، ليست قصة . أنها مجرد دراسة فى الجنس . إنها - أدبيا - فضيحة . ولكن ليس هذا هو الجانب الذى يعيننا فى الموضوع . يعيننا فقط أن نخرج بالتلخيص التالى : اننا هنا أمام عاشق . إنه عاشق يعلم مقدما أن حبه مستحيل . إن المجتمع يقف عقبة بينه وبين حوريته . البطل نفسه يقول فى القصة «لقد وجدت نفسى أنضج وسط حضارة تسمح لرجل فى الخامسة والعشرين بالارتباط بفتاة فى السادسة عشرة ، ولكنها لا تسمح له بذلك مع فتاة فى الثانية عشرة» . ولكن المجتمع ليس وحده ضد العاشق هنا . إنها الطبيعة أيضا .

هنا بالضبط نجد أن هذه الصورة امتداد لمفهوم فى الحب ساد القرون الوسطى . ليس من حيث أن موضوع العشق هو فتاة لم تصل بعد حتى إلى سن المراهقة .. لأن هذا كان وضعاً مألوفاً فى القرون الوسطى (الشاعر الإيطالى دانتي مثلا كان يحب بياتريس ، التى كان عمرها تسع سنوات . وفى القرن التاسع عشر تزوج الشاعر الأمريكى ادجار آلان بو لفتاة فى سن الرابعة عشرة) . الإمتداد هنا ليس بالنسبة لموضوع الحب ، بل بالنسبة لنوع الحب ، ونوع العشق .



إن أعظم مثل لذلك هو أسطورة «تريسترام» التي ذاعت وانتشرت في الأدب الغربي في القرون الوسطى . إن تاريخ أول نسخة منها يرجع إلى القرن الثاني عشر وتناولها فيما بعد شعراء كثيرون ، ولحنها «فاجنر» في سنة ١٨٦٥ .

أن «تريسترام» - منذ لحظة ولادته - هو شخص تعيس أبوه مات حالا وأمه ماتت فور ولادته . ولكن الملك «مارك» - خاله - يأخذ الطفل اليتيم ليربيه في قلعته . وينمو الطفل ليصبح شابا وفارسا وشجاعا . ويرسله الملك «مارك» إلى أيرلندا ليحجى بعروس له - للملك - هي الحسناء «ايزولده» . أن «تريسترام» و«ايزولده» يحسان بالعطش وهما في السفينة فتحضر لها خادمة «ايزولده» شرابا سحريا خطأ .. كانت أم العروس قد أعدته لكي يشربه الملك «مارك» وعروسه بعد خطبتهما . ونتيجة لهذا الخطأ فإن «تريسترام» و«ايزولده» قد أصبح محكوما عليهما بمصير لا يستطيعان الهرب منه طوال حياتهما . إنهما بسبب هذا الدواء نشأ بينهما حب متبادل .. وقد اعترفا الآن لبعضهما بهذا الحب وذهبا في عناق طويل .

ولكن «تريسترام» ما زال عليه واجب مكلف به . مهمة يجب أن ينجزها منذ كلفه بها الملك «مارك» . وهكذا ، فبالرغم من خيانتة للملك فإنه يسلم «ايزولده» إليه .

وفى ليلة الزفاف تقوم خادمة «ايزولده» - بفضل الحيلة - بأخذ مكان «ايزولده» في السرير الملكي . وهكذا تنقذ سيرتها وتكفر في نفس الوقت عن خطئها في صب الشراب السحري .

وتصل علاقة «تريسترام» و«ايزولده» إلى علم الملك . وبعد تفاصيل عديدة ، يتأكد من وجود هذه العلاقة ، فيقرر معاقبة كل منهما . إلا أن العاشقين يتمكنان من الهرب ويختبئان في الغابات . لقد عاشا ثلاث سنوات في الغابة حياة صعبة وقاسية .

ثم حدث ذات يوم أن الملك «مارك» كان يتجول في الغابة فرأى العاشقين نائمين . ولكنه وجد سيفا بينهما . واقتنع الملك بدليل البراءة هذا .. فيقبل فيما بعد عرض «تريسترام» بأن يعيد إليه «ايزولده» . فعلا .. تعود «ايزولده» إلى الملك .. ويرحل «تريسترام» إلى جزيرة بعيدة .. بل ويتزوج فعلا من امرأة أخرى .. حيث بدأ يتصور أن «ايزولده» لا بد أن تكون قد نسيته بعد هذه المدة الطويلة .

ثم يصاب «تريسترام» فى يوم ما بجرح قاتل . إنه يعلم أن هناك امرأة واحدة تستطيع شفاؤه من هذا الجرح : «ايزولده» . لهذا السبب يرسل فى طلبها . إنها تأتى إليه . وحينما تقترب سفينتها من جزيرته تنصب شراعا أبيض كعلامة أمل . ولكن زوجة «تريسترام» تراقب هذا كله .. وتمزقها الغيرة .. ومن ثم فإنها تذهب إلى «تريسترام» الرائد بين الحياة والموت .. وتخبّره بأن الشراع أسود وليس أبيض . فى هذه اللحظة يموت «تريسترام» . وحينما تصل «ايزولده» بعد قليل فإنها تجد عشيقها قد فارق الحياة لتوه .. فتعائقه ميتا ، ثم تموت هى الأخرى .



إن هذه الأسطورة تحدد لنا بالضبط ملامح الحياة فى القرون الوسطى . لا ، إنه ليس حبا .. بل عشق . فالبطل هنا يعشق محبوبته إلى حد العبادة . وهو يواجه حواجز مرتفعة وضعها المجتمع بينهما . إن الحب يعيش على وجود هذه الحواجز . فالعاشقان فى قصة «تريسترام» لا يحبان بعضهما حقيقة . أن الاثنين يحبان .. الحب ! يعبدانه ويصليان له ويعيشان عليه . والحب عندهما يقاس بمدى غياب الطرف الآخر . ففى غيابه يحدث الألم وتبدأ الوجيعه . فى نفس الوقت لم يكن الزواج حلا للمشكلة . فالزواج يسحب من الحب رومانسيته وخياله .

إن شعراء القرون الوسطى استبعدوا الزواج كعلاج . أما العلاج فهو الموت ، والموت فقط . فالحب الرومانسى أيامها كان يخشى الواقع ويخاف من الضوء . إن الزواج هنا مستحيل . إنه مستحيل لأن عقبات ضخمة تمنعه . وإذا لم يضع المجتمع أو الطبيعة هذه العقبات (كما فى قصة لوليتا) فإن العاشقين يقومون بوضعها (كما يرمز السيف الذى وضعه تريسترام بينه وبين ايزولده) .

إن علاقة العشق هنا ترفض كل ما هو عاجل ، وتتحاشى كل ما هو قريب . والعشق نفسه لا يعيش هنا إلا من على مسافة . وعندما لا توجد هذه المسافة فإنه يخترعها . باختصار : العاشقان هنا يحبان الحب .. بأكثر مما يحب كل منهما الطرف الآخر !

هذا صحيح بالنسبة لأسطورة «تريسترام» . وصحيح أيضا بالنسبة لروميو وجولييت فى الأدب الإنجليزى .. وفى قصة «بيرجنت» فى أدب الشمال .. وفى قصة «قيس وليلى» و«جميل وبثينه» فى الأدب العربى .



إن هذا المعنى يلخصه جميل فى قصة «جميل وبثينه» عندما يقول :

يموت الهوى منى إذا لقيتها

ويحيا إذا فارقتها فيعود

إن العاشق هنا يحب الحب بأكثر مما يعشق محبوبته . إنه يعشق الحب ويفخر به . هذا أهم عنده من اللقاء بمحبوبته . إن عشقه يموت منه إذا التقى بها . يموت لأنه اقترب أكثر مما يجب . ولكنه يعيش من بعيد . من مسافة .

هل نريد نموذجا أكثر معاصرة ؟ فلنأخذ مثلا أغنية أم كلثوم التى كتبها أحمد رامى «أنت الحب» عندما يقول الشاعر :

ولما أشوف حد يحبك

يحلالى أجيب سيرتك وياه

هل هذا معقول .. أو منطقي ؟ نعم .. ولا . نعم هو منطقي إذا فهمنا أن الشاعر هنا هو «الحب للحب» . ولكنه غير معقول ولا منطقي إذا فهمنا أن الحب عاطفة شخصية.. وشخصية جدا .. وليس هكذا «على المشاع» .. كما أنها لا يجب أن تحتفظ بوجود المسافة بين طرفى الحب .

إن مدرسة «الحب للحب» أعطتنا أعمالا أدبية رائعة .. تاريخيا . ولكن العاشقون بهذا المفهوم لا يحب أيهما الآخر حقيقة . إن كل ما يريده كل منهما ليس وجود الطرف الآخر بل غيابيه . إن افتراقهما شرط جوهرى يمليه حبهما نفسه .

ولكن مدرسة «الحب للحب» سيطرت على الأدب لمدة طويلة طويلة . ليس هذا مدحا أو ذما . ولكنه تسجيل تاريخى قبل كل شئ . إن مدرسة «الحب للحب» أعطت للأدب الغربى والعربى جزءا من أمتع رواياته الرومانسية والشاعرية . إنه مدرسة ترفض كل ما هو واقعى وتؤمن بكل ما هو خيالى . وهى تحتفظ دائما بمسافة كبيرة بين العاشق والمعشوق . إن مسرحية «أهمية أن يكون الإنسان جادا» لأوسكار وايلد مثلا تلخص هذا المعنى عندما يقول أحد أبطالها : «فى الحق إنى لا أرى فى طلب الزواج أية شاعرية . الشاعرية كل الشاعرية فى أن يكون الإنسان عاشقا . إن جوهر الشاعرية فى الحب هو أن يظل الأمر معلقا بين الشك واليقين» .



وعلى الطرف الآخر من هذه المدرسة في الحب نجد مدرسة أخرى . مدرسة نجد أحسن مثال لها في أسطورة «دون جوان» . أن «دون جوان» هو البطل الأسطوري في كثير من الأعمال الأدبية حتى مطلع القرن العشرين . لقد كتب عنه موليير ، وبايرون ، وبلزاك ، وبراوننج ، وجورج برنارد شو . لقد أصبح الاسم ممثلاً لمن يغزو قلوب النساء ، تماماً مثل زميله الإيطالي «كازانوفاف» .

الاثنان إذن - دون جوان الإسباني وكازانوفاف الإيطالي - ينتميان إلى مدرسة واحدة في الحب هي مدرسة «الحب للجنس» أو «الحب للغريزة» مقابل المدرسة الأخرى «الحب للحب» . ونستطيع أن نقارن بين دون جوان وبين بطل أسطورة «تريسترام» مثلاً . أن «تريسترام» يريد ما هو أكثر من الزواج . أما دون جوان فيريد ما هو أقل من الزواج . «تريسترام» تستمر متعته بقدر بقاء محبوبته عذراء . أما دون جوان فمتعته الوحيدة هي الإنتهاك ، الإغتصاب . وبمجرد أن يحقق هذه المتعة ينتهي كل شيء . ينصرف . إنه ينصرف بحثاً عن هدف جديد لمتعة جديدة .

و«تريسترام» يملك امرأة واحدة .. هي «ايزولده» . أما دون جوان فيملك ألفاً وثلاث نساء (في اسبانيا وحدها) . «تريسترام» أعمى عن الدنيا كلها إلا عن حبيبته . لقد تركزت الدنيا كلها في شخص معشوقته . أما دون جوان فما يهمه هو الكثرة . التنوع . التعدد . والحب للحب يحتاج إلى دموع كثيرة ، دموع مستمرة ، كما في أسطورة «تريسترام» . أما «الحب للجنس» فيحتاج إلى قفشات كثيرة ، كما في أسطورة دون جوان . إن الحب عند «تريسترام» عاطفة تقتل الغريزة . والحب عند دون جوان غريزة تقتل العاطفة . لنأخذ مثلاً هذه الكلمات التي يقولها دون جوان : «.. إننى التقطت تفاحة . استمتعت بها . أنا أرى تفاحة أخرى .. من المنطقي أن ألتقطها أيضاً» . هذا السبب - ومثله كثير - هو الذى يحرك دون جوان في غرامياته . إنه ينسى أن المرأة ليست مجرد تفاحة .. وأن المرأة يضايقها تماماً رجل لم «يمسك» بها . يضايقها رجل يكتفى ب «تذوقها» .



ويمكن أن نجرى مقارنه مماثلة بين دون جوان و«كازانوفاف» . الاثنان يؤمنان بمدرسة واحدة في الحب . مدرسة «الحب للجنس» . الاثنان «يسخطان» الحب إلى مجرد غريزة . مجرد شهوة .

أن المقارنة بين هذين الإثنين بالذات كانت الشغل الشاغل لمؤرخين عديدين وكتاب مختلفين . إنها بالضبط - مع فوارق كثيرة - كالمقارنة بين تولستوى وديستوفيسكى .. أو بين ميشيل أنجلو وليوناردو دافينشى .. أو بين أفلاطون وسقراط .

فبالرغم من انتمائهما إلى مدرسة واحدة وشعار واحد فإنهما يبدآن من نقطتي بداية مختلفتين . كازانوفا يحب النساء . يحب الجنس كله . أما دون جوان فيكرههن . إن دون جوان يحب أن يكشف في المرأة نقطة ضعفها . وهي لذلك تسعد به لحظة ، ولكنها تكرهه بعد ذلك سنوات . المرأة هنا تكره نفسها قبل أن تكره دون جوان . لناخذ مثلا «دونا آنا» أو «دونا اليفرا» و ... كل الباقيات .. ظلت أرواحهن مسممة بعد تجربتهن مع دون جوان .

وإلى جانب ذلك هناك أيضا جوانب اتفاق كثيرة بين كازانوفا ودون جوان . فأولا .. كلاهما يؤمن بالجزء الغريزي في الحب . كلاهما لا يحب امرأة ، ولكنه يحب المرأة . كلاهما يؤمن بأن النساء تحت ملابسهن عاريات متساويات . وكلاهما .. بعد هذا كله : لا يحب !



إذن .. ما هو الحب ؟

إذا لم يكن الحب هو قيس وليلى ، أو جميل وبثينة ، أو روميو وجولييت .. فما هو الحب ؟

إذا لم يكن الحب هو كازانوفا ، ولا دون جوان .. إذن .. فما هو ؟

إن الحب هو اختيار . هو بداية غريزية تتبعها نهاية عاطفية . إنه ضرورة إنسانية . الحب ضرورة .. لأن الإنسان لا يستطيع أن يصنع من وحدته نجنا يعيش فيه . هذا معناه الجنون . والإنسان فى جميع العصور والثقافات يواجه نفس السؤال : كيف يتغلب على وحدته وانعزاله ؟ . السؤال واحد مع رجل يعيش فى الكهف ، ومع بدوى فى الصحراء ، ومع فلاح فى الحقل . ومع التاجر الفينيقى و .. مع الموظف وعامل الإنتاج فى العصر الحديث .

والحب بعد هذا كله : فن . إنه فن له أصول وقواعد مثل أى فن . إن الحب فن لأسباب عديدة . فأولا .. معظم الناس يرى مشكلة الحب باعتبارها أساسا مشكلة أن يكون

محبوبيا .. أكثر مما هي مشكلة أن يحب . وفي السعى نحو هذا الهدف فإن الناس - أنا وأنت وهي وهم - يسلكون طرقا مختلفة .

إن الرجل مثلا ، يهمله أن يكون ناجحا ، قويا ، غنيا . والمرأة يهملها أن تكون جذابة ، أنيقة ، جميلة . إن كلا من المرأة والرجل يريد أن يكون جذابا لأكثر عدد من الجنس الآخر . إن الجاذبية نفسها تختلف من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع ، ومن طبقة إلى طبقة داخل نفس المجتمع .

فمنذ عشرين سنة مثلا كانت الفتاة الجذابة هي التي تطبخ وتكنس وتغسل جيدا ، وتقنع كثيرا ولا تناقش أبدا وتطيع دائما . وكان الرجل الجذاب هو الذى يتمتع بشوارب مبرومة وعضلات مفتولة .. «ابن بلد» مع أصدقائه و«سى السيد» مع أسرته .

والنظرة إلى الحب تختلف أيضا من عصر إلى عصر ، ومن مجتمع إلى مجتمع . الناس منذ عشرين سنة مثلا - وحتى الآن - يرون المسألة على أنها «وقوع» فى الحب . كلمة «وقوع» هنا توحى بأن الحب مسألة سلبية للغاية ، نقع فيها دون تخطيط سابق أو استعداد سالف . وتوحى أيضا بأنه لاشيء أسهل من الحب .



وأول خطوة لتصحيح هذا كله هي أن نؤمن أولا بأن الحب مسألة حتمية ، وثانيا بأن الحب .. فن .

فالحب حتمى .. ضرورى ضرورة الحياة نفسها . هكذا صورته أساطير الإغريق ، وحددته الأديان ، وتؤكداه الحقيقة . أن المفكر الفرنسى «فولتير» مثلا يرى .. أن الحب هو الشيء الوحيد الذى يعوض الإنسان عن كل الصفات التى أعطتها الطبيعة للحيوانات : القوة ، الجمال ، الرشاقة ، والسرعة .. بل إنه تفرد عن كائنات حية كثيرة لا تعرف متعة الإتصال أو العلاقة الجنسية . إن الأسماك مثلا محرومة من هذه البهجة .. حيث الأنثى تضع وتقذف بملايين البيض على الوحل .. ثم يأتى الذكر بالصدفة فيعوم فوقها ويخصبها دون أن يشغل نفسه بمن تكون الأنثى التى وضعتها .

والإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يعرف مثلا ما هي القبلة . إن كل جسمه حساس . إن شفتيه مثلا قادرتان على تحقيق هذه المتعة التى لا يعرفها كائن آخر سواه : القبلة .

وفيكثور هوجو يقول : «أقصى سعادة فى الحياة .. هى أن نقتنع بأننا محبوبون» .
والشاعر الهندى طاغور يقول : «الحب هو الحياة فى تمامها وامتلائها .. كالكأس
ملئية بخمرها» .



هذه هى متعة الحب .. وتلك هى حتميته . وحينما أحب فإننى أبدأ فى رؤية الدنيا
بشكل مختلف . إن الوسادة تحت رأسى تصبح رفيقا لى ، وضوء القمر متعتى ، والنجوم
حروفى ، والأزهار رموزى ، والهواء طعامى . فالحب يجعلنى أرى الدنيا كما لم تكن
دنيا . والحب قدر . مصير . نهاية . بل - أكثر من ذلك - يثبت لنا التاريخ والأدب أن
الإنسان حينما لا يجد الحب فإنه يخترعه . وحينما يخترعه .. فإنه يصدق .

إن الأديب الروسى مكسيم جوركى مثلا له قصة بعنوان «ستة وعشرون وواحد» . وفى
القصة يقول على لسان أبطال القصة الستة وعشرين : «كنا - مثل كل الناس - لا نستطيع
أن نعيش دون أن نعبد شيئا ما . شخصا ما . ولم يكن أمامنا سواها .. فعبدناها» .
لقد اشترك ستة وعشرون عاملا فى حب فتاة واحدة عندما لم يكن أمامهم حل آخر
غير ذلك !

وفى الحرب العالمية الثانية قرأنا قصة الجندى الألمانى الذى ظل يبكى بعصبية .. لأن
دبابته دمرت . إن فقدانها بالنسبة له كان مسألة تعنى أكثر مما يعنيه فقدانها لزملائه .
لماذا ؟ لأن الدبابة كانت شيئا مساويا عنده لرفيق إنسانى . كانت طبقة حامية له ضد
العالم الخارجى القاسى .

ومن أروع القصص التى قرأتها قصة للكاتب الفرنسى «بلزاك» بعنوان «غرام فى
الصحراء» . القصة بسيطة .. غاية فى البساطة . وهى بسيطة لأنها إنسانية . وهى قمة
فى إنسانيتها . هذه هى : أن جنديا فرنسيا جاء إلى مصر مع جنود نابليون . ثم أسرته
قبيلة من الأعراب الذين يعيشون فى الصحراء الغربية . ولكنه فر من الأسر . يفر إلى أين ؟
لا شيء أمامه سوى الرمال يمينا ويسارا . أماما وخلفا . صحراء فى صحراء . ثم كاد يموت
من اليأس . أن عمره ٢٢ سنة ولكنه أحس بأنه أصبح شيخا فى السبعين . ثم نام فى إحدى
المغارات . نام لكى يستيقظ على صوت حيوان ضخم إلى جانبه : لبؤة ! ماذا حدث بعد

ذلك؟ أحبته اللبوة! تصور؟ بل إنها بدأت تغار عليه عندما بدأ يتطلع بشوق إلى نسر
 رآه فجأة يحلق في السماء! و.. أحبها هو!
 المهم: بساطة القصة واضحة. نحن نحب.. لأنه لا بد لنا أن نحب. لا بد. لا مفر.
 لا فكاك.



ثم يأتي سؤال: كيف نحب؟

إن الحب فن. انه فن لأسباب كثيرة سبق عرض بعضها. وما دام الحب فنا فلا بد أن
 تكون له - مثل أى فن - قواعد وأصول. أن أى فن.. لنقل مثلا الموسيقى أو الرسم أو
 الطب أو حتى التجارة.. له أصول وقواعد. فهل فى الحب مثل هذا؟
 طبعا. هكذا يقول عالم النفس الأمريكى «ايريك فروم». انه يقسم مراحل أى فن إلى
 مرحلتين. أولا: إجادة القواعد النظرية. وثانيا: الممارسة والتطبيق.
 فإذا أردنا مثلا أن نتعلم «فن» الطب.. فيجب أن نتعلم أولا الحقائق العامة عن الجسم
 الإنسانى وعن أحوال إصابته بالأمراض. وعندما نمتاز فى ذلك لا يبقى لدينا سوى اختبار
 هذه القواعد فى التطبيق.

والحقائق العامة فى الحب تقول أن الإنسان يبدأ طفلا. والطفل يحب أمه مثلا لأنها
 تحبه. يحب أسرته لأنها تحميه. إن شعاره هو «أنا أحب.. لأننى محبوب». أما الرجل
 الناضج فشعاره يجب أن يكون «أنا محبوب.. لأننى أحب».
 فالحب هو أساسا ليس علاقة بشخص آخر. بل هو أولا «شعور» نحو شخص آخر.
 شخص محدد. فأنا إذا كنت أحب فتاة محددة.. فإننى فى الواقع أحب فيها كل
 الناس. وإذا كنت قادرا على أن أقول لها «أنا أحبك» فيجب أن أكون قادرا على أن أقول
 لها أيضا «أنا أحب فىك كل الناس.. أحب الدنيا من خلالك.. وأنا أحب فىك نفسى
 أيضا! لماذا؟ لأن وجود حالة حب بين طرفين معناه فى الواقع أن كل طرف منهما يرى
 فى الطرف الآخر امتدادا له. استمرارا له. استكمالا له.

وفى الحب لا بد أن يكون الطرفان متساويين. عندما أكون عبدا فإننى أتمنى أن تكون
 محبوبتى سيدة على. هى تقودنى وأنا أستسلم لها. عندما أكون طاغية أريدها خادمة

لى . أنا فى المقدمة .. وهى ورائى . أما عندما أكون إنسانا .. فىجب أن تكون مساوية لى .. مشاركة لى . رأسا برأس . رأيا برأى . حبا بحب .



والحب هو ابن الوهم .. وأبو الحقيقة . إنه يبدأ بغير منطق ، ولكنه ينتهى بمنطق . فالحب هو الدواء الفريد ضد الموت . إننا فى الحب - وبالحب - نسعى إلى تخليد أنفسنا . ونحن نخلد أنفسنا على الأرض بشرط أن نموت . بشرط أن نسلم حياتنا إلى آخرين . نسلم حياتنا لهم .. ثم نموت .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر الهندى الكبير الراحل طاغور : «ليس الابن عزيزا على أبيه لذاته ، ولكن الأب يرى فيه امتدادا لنفسه ويرى فيه خلود حياته لأجيال مقبلة» .

أذن .. فى الحب يسعى كل طرف إلى تخليد نفسه بواسطة الطرف الآخر ومن خلاله . وهذا يحدث دائما .. على الرغم من أنه لا يكون ساعتها واعيا بذلك .. أو متنبها لذلك . أن كل طرف يبني متعته على هذا الأساس .

والحب دائما علاقة بين اثنين . كل منهما هو العبد والطاغية فى وقت واحد . عبد للآخر وطاغية عليه دائما . إذا كان عبدا دائما ، أو طاغية دائما ، فهذا ليس حبا . هذا مرض .

والرجل يريد دائما أن يشعر بالحب . أو يريد - وهو نفس الشيء - أن يشعر بالحنان . إن الرجل يريد من امرأته أن تدرك وتشارك فى متاعبه وهمومه . أن الشحات يشعر بعرفان أقل للحسنة التى يقذفها له رجل متجهم .. يسرع فى الطريق . ولكنه يشعر بعرفان أكثر لمن يشفق عليه بدون أن يعطيه حسنة .. على الرغم من أنه - لاعتبارات عملية - قد يفضل الأول !

وحب المرأة - فوق كل شيء - هو دائما حنون فى جوهره . به شيء من الأمومة . إن المرأة تشفق على رجلها لأنها لا تحب أن تراه يقاسى ويتعذب . جوليبيت كانت حنونا على روميو .. وايزابيل على لورانزو .

فالنتيجة : إن المرأة .. أكثر حبا من الرجل . أكثر نقاء . أكثر صفاء . أكثر عمقا . والحنان هو جوهر الحب الإنسانى . إنه حنون أكثر كل من يحب أكثر .



ومن ناحية أخرى فإن الحب نشاط ، وليس حركة سلبية . إنه موقف وليس «وقوعا» . إنه عطاء قبل أن يكون أخذا . فالشخص الذى لا يحب أحدا لا يمكن أن يحبه أحد ! أو - بكلمات الفيلسوف الألماني «نيتشه» : «يجب أن نحترس من الشخص الذى يكره نفسه ، لأننا متأكدون من أننا سوف نصبح ضحايا غضبه ونقمته . دعنا إذن نحاول أن نقتنه بأن يحب نفسه» .

والحب بعد ذلك هو تضحية . إنه تضحية مشتركة . لا يهم من يبدأ . لا يهم من يضحى أكثر . المهم أن كل طرف مستعد للتضحية .

ولكن شعراء وأدباء القرون الوسطى كان شعارهم فى الواقع هو «الحب للحب» كما سبق القول . لقد قدموا لنا أعظم العشاق . ولكن هؤلاء العشاق أنفسهم سقطوا تماما فى العصر الحديث . لا يوجد الآن روميو ، أو دون جوان ، أو كازانوف ، أو قيس ، أو جميل . لا يوجد واحد من هؤلاء كبطل فى الحياة أو فى الأعمال الأدبية . لأن مثل هؤلاء العشاق يخيفهم الواقع ، وتقتلهم الحقيقة . أن الغرام الخيالى الرومانسى أصبح نوعا من الحب يرفضه العصر الحديث الآن ، متى كانت ترفضه الحياة نفسها فى كل وقت .

أن الأديب الروسى العظيم «تولستوى» له قصة تلخص هذا المعنى . قصة عنوانها «سعادة الأسرة» .. فبعد حب عنيف تزوج الرجل والمرأة . ولم يكدهم يمضى وقت طويل حتى بدأت المرأة تحس بأن الزواج أصبح «قفصا» لحبها . إنها تقول فى القصة : «.. لم يكن هذا ما أحتاجه ، أو ما أطلبه . أنا أريد صراعا . أريد مقاومة . أنا أريد العاطفة تقود الحياة ، لا الحياة تقود العاطفة» . وهى تقول أيضا : «.. إن حياتنا أصبح لها نمط واحد . أن احساساتنا قد تجمدت فى القلب . انشراح فى الصباح . احترام فى الظهيرة . حب فى المساء» .

إنها نهاية طبيعية لهذا النوع من الحب : الحب الذى يحلق فى السماء دون أن يقف على الأرض . هذا امتداد لمفهوم الحب الأفلاطونى .. وهو امتداد أيضا لمفهوم «الحب للحب» عند أدباء القرون الوسطى . فالحب عندهم كان ساحرا بقدر ما هو محرم وممنوع.. ميته بقدر ما هو معترف به علنا . أن الحب عندهم يتغذى بالصعوبات التى يقاقلها . فالحب يختار العذاب والألم قبل أن يختار السعادة . إنه يدفع الشخص إلى أن يموت من أجل امرأة لم يكن ليحبها لو عاش معها .

لهذا السبب فإن الحب للحب مفهوم لا يصلح الآن لعصرنا هذا . لا يصلح لأنه يحتاج إلى المعارضة ، أو حتى إلى الرفض الرسمي ، لكي يلتهب ويشتع . وإذا افتقر مثل هذا الحب إلى العقبات ، فإن النهر الذي يدفعه إلى الأمام يصبح فارغا ، كاشفا عن الأرض الحقيقية ، عن الواقع المجرد .

لقد سقط «الحب للحب» في عصرنا الحديث لأسباب كثيرة . أحد هذه الأسباب هو حصول المرأة على المساواة السياسية والقانونية و - أهم من ذلك - المساواة الاقتصادية . فمجرد أن تصبح المرأة كائنا متساويا ، معناه أن من حقها أن يصبح لها حياة خاصة بها . هذا يضطر الرجل إلى أن يعاملها ككائن حقيقي . كائن بعيد عن الأوهام ، يجب التفاهم معه عمليا . كائن له مكانة يجب احترامها . إن المرأة ، في وضعها هذا ، من الصعب جدا أن تستسلم لدرسة «الحب للحب» التي يمثلها عشاق القرون الوسطى . الحب من بعيد.. من مسافة .

إن المرأة الحديثة - مثل الرجل الحديث - أصبح من حقها أن تجرب ، وأن تختار ، وأن تحب . قد تفشل مرة . قد تفشل مرات . ولكن العلاج الوحيد لأخطاء الحرية .. هو مزيد من الحرية .



إن الله خلق آدم وحواء وتركهما يعيشان في الجنة . وعندما عصيا ربهما وأكلا من الشجرة المحرمة أنزلهما إلى الأرض . هذا طبيعي . هذا ضروري . فلا توجد حرية قبل أن يوجد حق الاختيار . أن آدم لم يصبح إنسانا قبل أن يكون من حقه أن يعصى ربه . وكل إنسان منا ليس حرا قبل أن يستطيع أن يختار ، وأن يرفض . أما إذا لم يكن من حقه الإختيار ، فإنه ليس إنسانا ، مثلما هو ليس حرا . والوجه الآخر للحرية هو المسؤولية . فمن يختار عليه أن يتحمل تاليا عواقب اختياره ومسئولية حريته .

ومن منظور الحب فإن الحق في الإختيار أصبح هو الشرط الحقيقي في الحب . كان حقا مقصورا على الرجل طوال قرون وقرون . الجديد أنه أصبح أيضا حقا معترفا به للمرأة في المجتمعات الناضجة . فالمجتمع لا يمكن أن يكون ناجحا قبل أن يتعامل نصفاه من نقطتين متساويتين . من رجل وامرأة . وليس من سيد وخادمة .

و ...

لقد أمتعنا الأدب الإنساني حقا ونحن نتابع فيه صورته المختلفة للحب . وأمتعنا الشعراء
- مع اختلافنا أو اتفاقنا معهم - في تصويرهم الصادق لعاطفة أساسية لازمت الإنسان منذ
نشأته . لقد حولوا لنا الحب إلى فن . فن تتمناه دائما بقدر ما نتصنع الزهد فيه أحيانا .
إن الشاعر الهندي الكبير الراحل طاغور يصور أحد هذه المواقف في ديوانه «البستان»
حينما يكتب على لسان امرأة :

قال لي في همس : ارفعي عينيك يا حبي
فنهرته بحدة وقلت : امض !

لكنه لم يحرك ساكنا

وقف أمامي ، وأمسك بكلتا يدي ،

فقلت : دعني !

أدنى وجهه من أذني ، فنظرت إليه

وقلت : يا للعار !

لكنه لم يحرك ساكنا .

ولامست شفتاه وجنتي ، فارتجفت

وقلت : يا لجرأتك !

لكنه لم يخجل .

وثبت زهرة في شعري

فقلت : لا فائدة !

لكنه وقف بلا حراك .

ثم أخذ الإكليل من عنقي ، ومضى بعيدا ..

إنني أبكي ، وأسأل قلبي :

لم لا يعود مرة أخرى ؟!